عدنان كنفاني

حين يصدأ السلاح



قصص

المحتويات

الإهـــــداء

إلى مناضل نقّي يسقط الآن..
وإلى طفل نقّي يولد الآن..
وبين هذا وذاك، راية تبقى تحمل الحلم والأمل ...

عدنان كنفاني

حين يصدأ السلاح

عندما تقف أمام البناء الذي كان عظيماً، تشعر أنك على وشك الدخول إلى عالم من الأشباح.. تسحبك الذاكرة إلى ساحات التصوّر الطفولي مع حكايات الغول والعنقاء، والساحرة الشريّرة المتربّصة في قصرها المهجور..
حتى هذه التصورّات الخيالية "القاسية".. التي ملأت دنيا طفولتنا بالخوف، لا تقارب أبداً ما تشاهده أمامك مفتوحاً على آخره يحكي "كما تروي رغم هدوئها المطبق شرائح الأسمنت المتراكمة بعضها فوق بعض بودّ ليس له مثيل" قصّة وجه الإنسانية الآخر عندما يفقد آدميته، ويعلّق قيمه وحضارته وثقافته وإنسانيته على ماسورة مدفع أو بندقية، أو فوق قذيفة تحصد وهي "تؤتي أكلها" الهلال والصليب والطفولة والتاريخ، وتترك وراءها بلا خجل إرثاً مقروءاً ومنظوراً إلى الأجيال القادمة يكرّس وصمة سوداء على الصفات الخيّرة، يشفق اللسان إلى التعرّض لذكرها..
ورغم القدرة على تلمّس المأساة براحة اليّد العارية.. لن تصدّق..
بناء من عشرة أدوار أو أكثر "فالأدوار العلوية متهاوية ومطبقة فوق بعضها على شكل يستحيل معه ضبط العدد"، وكل طابق يضمّ ثماني شقق سكنية..
واجهة عريضة تفتح ذراعيها على ثلاثة شوارع رئيسة من أهم الشوارع التي قدّر لها أن تكون على مقربة من خطوط التماس الساخنة بين شطري المدينة الغربي والشرقي..
وقدرها هذا جعلها هدفاً جليّاً من جهات أربع، حوّلها "مع استمرار التهديف" إلى هيكل مرعب، لو أعملت أقصى طاقات إبداعك، فلن تقدر أن تحقق له وصفاً..
تقرأ بوضوح على ما بقي صامداً من الجدران، توقيعات كافة أنواع الأسلحة ومقذوفاتها الخفيفة والثقيلة، الحارقة والمفجّرة والمخترقة إلى الطرف الآخر تاركة من خلال ثغرات بشعة فوهات ضيّقة تقود ناظريك للتفرّج على مساحة محدودة من المدينة المسحوقة بعذاب الحرب..
ولن يفوتك التمتّع للحظات ببريق مياه البحر البعيد من جهة أو بقمم الجبال الخضراء من الجهة الأخرى.
تحيّرك الأسئلة.. كيف خلع هذا البناء العملاق ثوب تألقه وأنواره ورخامه الأبيض والملّون، ورسم الحضارة الذي أراد تأكيده.؟ وكيف ضاع ما كان ومن كان فيه ؟
من سقط أمامه أو على الطريق وهو يصارع بالدمع والساق موتاً فرض عليه ؟ كيف انتشل أشياءه التي بناها قطعة قطعة ودمعة دمعة.. وهل استطاع أن يفعل.؟ أم عاجلته المصيبة ولم تترك له أكثر من مساحة "الأنا"..
تساقط الزجاج وأعمل تقتيلاً ثم تفتّت وتلاشى، تساقطت أو نزعت، حرقت أو سرقت الأخشاب التي كانت أبواباً ونوافذ ومكتبات وتركت مكانها فراغات مرعبة يحيط بها السواد، ويرسم فوق رؤوس حجارتها المدبّبة أشكالاً مشوّهة ملطّخة بالأحمر والأصفر والرمادي..
حتى الشرفات التي حملت بين جنباتها لحظات الحب والفرح والشوق، وفناجين القهوة الصباحية ومناقيش الزعتر مع اقتراب المساء، وحملت همهمات أمّهات يتابعن لعب أولادهن على الرصيف المقابل وأشواقهن في انتظار الرجال، تساقطت هي الأخرى..

بعضها هوى ولم يحتمل، وبعضها الآخر تعلّق وأرخى أطرافه المشكوكة بأسياخ الحديد مثل جدائل عذراء ذبيحة..
وبدت واجهة البناء شبحاً لرجل مهلهل بارع "كما في كل الأوقات" باصطياد الأشياء التي تبدو ثمينة من حاويات القمامة..
أمّا البوابّة الرئيسة فقد تراكمت أمامها أكوام التراب والحجارة، غيّبت تحتها الأرصفة والجثث والأحلام وأنبتت فوقها فيما بعد "أشياء".. ليست وروداً ولا زهوراً ولا لوحات جميلة.. لكنّها أطياف قاتمة لبقايا ألوان حمراء وسوداء غامقة..
ولولا هذه الستارة الملوّنة البالية المحتّلة موقع نافذة بين طابقين.. يبدو من طرفها الضيق رأس أشيب صغير، يطّل لحظة ويغيب طويلاً . لحسبت أنك حقيقة أمام بوآبة عالم مجهول مليء بالأشباح المرعبة .
تخفي "الستارة الملوّنة" وراءها مساحة من عتبة الدرج، وفسحة الوصول إلى المصعد، مكان ضيّق لكنّه مختار بعناية، عاش فيه "يوسف" وصمد وحيداً سنوات طويلة بلا ماء ولا كهرباء وفي حّد أدنى من الراحة والأمان.. وعاش في غرفة نظيفة واسعة تقع تحت درجه الرئيسي . في القبو..
كانت تعني له الكثير من الترف بالقياس إلى سنوات الحرمان الطويلة التي قضاها في أمكنة لا تخطر على بال آدمي، تراوحت بين حظائر الحيوانات، والبساتين، وعربات الباعة المتجوّلين، ورمال الشاطئ، والحدائق المنتشرة هنا وهناك..
سنوات غربة طويلة حملته إليها بلاد أخرى "لم يعرفها أحد"، ولم يستطع حتى العم الطيب "أبو نايف" صاحب دكّان البقالة في آخر الشارع أن يعرف كيف "ولد" هذا الرجل الضئيل في زحمة المدينة الصاخبة..
سقط من فضاء مجهول، بلا ماض وبلا هوّية .
وقد استطاع "أبو نايف" هذا أن يجد عملاً لـ "يوسف" كناطور وبوّاب لهذا البناء العملاق..
ومن يومها دخل دنيا جديدة نظيفة أضافت إلى تقاطيع وجهه القاسية صفة لم يكن يعرفها أو أنه نسيها منذ زمن، يسمّونها "الابتسامة"..
وافق صاحب البناية الثري بكفالة العم "أبو نايف" على أن يعمل يوسف عنده بلا راتب شهري، كان يكفيه وزيادة "على رأي المالك الثري" ما يكسبه من خدمة سكّان البناء الكثر، وخاصّة أجرته عن تنظيف الدرج وشطفه كل أسبوع على الأقل، إلى جانب إقامته الشخصية.. المجّانية..
والأهم من ذلك كله ما يتحمّله المالك "المدعوم" من مسؤولية التستّر على شخص مجهول وبلا هوّية..
ومن يومها عاش "يوسف" في دنياه الجديدة راضياً وسعيداً، وحقّق خلال زمن قياسي محبّة السكّان، فقد حرص بجهد دؤوب ومخلص على تأدية الخدمات الكثيرة لهم بأمانة وعن طيب خاطر بل وتفان ليس له مثيل..
عندما بدأت الحرب الأهلية المجنونة غادر صاحب البناء "الثري الكبير" البلد إلى بلد أجنبي، يملك فيه أيضاً بيوتاً وأعمالاً رائجة وأرصدة محترمة في "مصارفها"، حقّقت له طيلة سنوات الحرب وما بعدها حياة مشبعة بالترف وأكثر من الكفاية..

وخلال هذه الفترة أيضاً غادر سكّان البناء الكبير شققهم واحداً بعد الآخر.. منهم من قتل أو جرح، وأكثرهم هرب إلى أماكن أكثر أمناً وأماناً، أو إلى بلاد أقل خطراً على حياتهم ليس أكثر، وفي نهاية المطاف وجد "يوسف" نفسه وحيداً في هذا البناء العملاق..
عاش دقائق الأحداث وتوالي فصولها ساعة بساعة ويوماً بيوم.. تتساقط الحجارة من حوله، وتملأ رأسه أصوات فرقعات تهشّم الزجاج وأزيزها المرعب..
وكثيراً ما اكتوى بلهيب الحرائق المتواصلة والمتّصلة على الدوام بتناسق تام مع أصوات العويل والبكاء وأنين الخوف وترّقب الموت في كل لحظة..
مرّت أمامه عشرات الصور المتشابكة والمختلطة، وأشكال "المليشيات" والتنظيمات والفرق المحليّة والدولية القريبة والبعيدة..
عاش تفاصيل الاجتياح الإسرائيلي بالطائرات والمدفعية وأحدث الآليات المتطورة التي تشبه بالشكل والمضمون تفاصيل دخول قوّات "المارينز" الأمريكية..
سنوات وسنوات والمأساة تمضي إلى الأمام ولا شيء يوقفها.. يتبّدل الشكل ويتغّير مع تبدّل مواقع المتقاتلين تقدّماً أو تقهقراً ولا يتبّدل وضوح السبب ولا المقصد والغاية التي لم يدرك أبعادها "يوسف".. كانت معركة لا تعنيه، ورغماً عنه لم يستطع إلا أن يعيش الساعة..
يحمل القتلى إلى السيّارات المكلّفة بنقل الجثث، وينقل الجرحى إلى حيث يطلبون ويقدرون على الوصول، وبين الحين والحين يكفكف دمعة تنساب ساخنة على صفحة طفل تيتّم، أو فتاة اغتصبت..
صمد مع القلائل الذين صمدوا، وأتقن صنعة البقاء على قيد الحياة مغلقاً عالمه كله على المسافة القصيرة بين بوابّة البناء العملاق وغرفته الآمنة المختارة عند عقدة الدرج، وبين دكّان العم "أبو نايف" المنطوية والمختبئة تحت كثافة إسمنت البناء القائم فوقها، والتي أصّر صاحبها أن تبقى مشرعة غالب الأوقات..
في ليلة حزينة تزوج "يوسف" من "حسنة" ابنة العم "أبو نايف"..
حدث الأمر بسرعة.!
وجدها في أحد الأقبية القريبة لبناء متهّدم، تموء مثل قطّة فقدت أشبالها المولودين توّاً، ممزّقة الثياب، على فخذيها العاريين خيوط رفيعة من الدماء، تخفي وجهها الملائكي الجميل المخّضب بدموع مقهورة ضعيفة وراء خصلات كثيفة من شعرها الأسود..
حملها برفق إلى بيتها، ومثل خلق الله، طلبها للزواج..
تزوجّها بلا ضجيج.. زفّتهما أصوات القذائف المتقطّعة، ورشقات الرصاص الخطّاط، كتبا ليلتها عهد الحب بينهما آهات موجعة فوق الجدران المتعفّنة المليئة بتوقيعات وشهادات كافة صنوف الأسلحة والطلقات..
تخّلى لها عن فراشه، فنامت بعمق كأنها طفلة عثرت على صدر أمها بعد بحث طويل..
في اليوم التالي جاء "أبو نايف" يخفي تحت معطفه الطويل بندقية حديثة سلّمها بكثير من الحيطة والتحّفز إلى "يوسف" ليستعملها عند الحاجة فالأمر لم يعد يحتمل "كما قال" هذا القدر من الحياد ولا بد من وسيلة للدفاع بها عن النفس..
عانقها بشوق، عادت به إلى زمن بعيد غائص في قاع واد سحيق، لكنّه انتفض فجأة تمالك زمام نفسه وقرّر بلا أسف أن يدفنها في مكان يصعب اكتشافه بين الأنقاض المبعثرة في قبو البناء العملاق..

بعد حين ظهرت عوارض الحمل على "حسنة" وأيقنت أن الأمر مؤكّد، اختلطت في رأسها الأوراق، وليس لها أن تتخلص من الشّك إلا بقتل الجنين، أو تعيش ما تبقى من العمر أمام وجوه قبيحة تغتصبها كل لحظة..
في ظهيرة يوم مشمس توجّهت إلى الشارع الخلفي للبناء حيث الساحة مكشوفة عن آخرها لرصاص القنّاصين، وبهدوء وتؤدة راحت تتمّشى وسط الشارع العريض..
لحظات.. ثم سقطت والدماء الغزيرة تسيل من رأسها..
انتظرا حلول الظلام لينسّلا تحت جناحه البهيم ويسحبا جثتها، ويسلّماها إلى سيّارة الهلال الأحمر المكلّفة ترحيل الجثث إلى المقابر الجماعية المجهولة..
توّقفت الحرب بعد حين، وبدأت الحياة تعود إلى وجوه الناس، وابتدأ العمل في أكبر عمليّة تنظيف ورفع أنقاض وتجديد مواقع وشوارع..
بين تلك المساحة وهذه مات العم "أبو نايف"، ومات صاحب البناء الثري تاركاً كل ما يملك لابنه "وريثه الوحيد" الذي عاد إلى البلاد بعد توّقف القتال، واستقرار الحال..
صبيحة يوم مشرق ربيعي.. فتح "يوسف" عينيه الغائرتين على منظر فريد .
عدد من الرجال يتحلقون حوله في مساحة المكان الضيّقة.. اقتلعوه من فراشه الضنك.. وأوقفوه عنوة أمام الشاب النحيل الذي نظر إليه طويلاً يتفحصه بدّقة.. رفع إصبعه النحيل مشيراً باحتقار إلى "يوسف" الضئيل المنهك المهلهل، بدا كأنه شبح قام لتوّه من قلب الحكايات والأساطير..
تمتم بقرف :
- ألقوا به إلى الطريق..!
وقبل أن يتحرك الرجال لتنفيذ الأمر، انسحب "يوسف" بانكسار ولم ينطق بحرف..
نزل بهدوء الدرج المكسّر إلى القبو.. أخرج البندقية من بين الأنقاض.. عانقها بعشق، عادت به مرة ثانية إلى ماض بعيد..
مازالت رائحة ماسورتها تحرّك في صدره نشوة لا توصف..
حملها بهدوء أيضاً إلى فوق.. صوّب ماسورتها إلى صدور الرجال الذين يعرفهم ويذكر أشكالهم.. يراهم يتجوّلون في سيّارات مكشوفة، يطلقون الرصاص على كل شيء يتحرّك، تلتصق وجوههم القبيحة على صدور العذارى..
وبهدوء شديد أيضاً.. هيأ السلاح.. وضغط على الزناد..
كان الصدأ الذي خلقته رطوبة القبو قد عشّشت في مفاصل السلاح.. فلم ينطلق.!
انقض عليه رجل ضخم، وقذفه مثل كرة من النافذة إلى الشارع..
سقط فوق ركام البناء المكّوم أمامها على الرصيف.. ارتطم رأسه على حجر مدّبب.. قتله على الفور..
تحلّق حول جثته خلق كثير.. قال أحدهم:
- انتحر..!
قال آخر بأسى :
- مسكين..!
حضرت سيّارة "الهلال الأحمر" المكلّفة نقل الجثث، على عجل..
أحد من الناس لم يتعرّف على صاحب الجثة..؟

وبينما كانت سيارة الموت تنقله إلى المقابر الجماعية المجهولة..
كانت "البلدوزرات" العملاقة تتقاطر إلى المنطقة لهدم البناء المتداعي ...

الحمـــار والعـــربة

دمعة صغيرة تأرجحت فوق جفنه المتجعّد وكادت تقفز.!
فـي اللحظـة نفسـها تلاشـت، اعتصـرتها تضـاريس الوجـه الضـئيل، وضـيّعتها بـين طيّاتـه العميقة..
ولم يستطع ذلك الوجه الضئيل إخفاء مسحة الحزن المتقاطرة نزولاً وصعوداً، تختلط مع شعيرات حاجبيه الكثين.. وتتمسّح على أنفه الذي رأيته منقاراً لصقر متحفّز، ثم تغوص في فوضى شاربه الأشيب.. تتأطر عبر التجاعيد الحادّة التي جهد الزمن في حفرها..
لوحة جامدة خرساء.. صورة حزن لا يوصف، ألف قيد يكبّلـه، ورغم ذلك تشعر أنـه قـادر على الانطلاق متى شاء إلى كل الاتجاهات..
- لا بد أنه "محمد" مرة أخرى.. أليس كذلك.؟
طوى وجهه الضئيل، وأطرق صامتاً تكتنفه حيرة..
مثّل لـي "أبـو محمـد" عبـر فتـرة ليسـت قصـيرة مـن الـزمن عايشـته فيهـا، طـرازاً فريـداً من الرجال المسحوقين، المغموسين إلى تحت في كل الظروف..
تجري الحياة من حولهم ولا تمسّهم بأفراحها، لا هم فاعلين فيها ولا هي تلتفت إليهم..
مقوّس الظهر..أنهكته النوائب.. يستند بين لحظـة وأخـرى بكلتـي يديـه إلـى عصـا طويلـة، أو لعلّها تستند إليه..
يتعلّق علـى كتفيـه بإهمـال معطـف برتقـالي اللـون، متّسـخ، تطـال أطرافـه المهترئـة حـواف "الجزمة" المطّاطية الطويلـة، ويحتضـن براحتيـه اليابسـتين كفـرعين لشـجرة زيتـون معمّـرة، العصا الطويلة المنتهية بمقشّة عريضة..
كلها تحمل بإعياء أعضاؤه المنهكة، فيبدو مع أشـيائه القليلـة الباليـة.. كفـارس قـام مـن غفـوة الماضي، تلقّى طعنةً قاتلة.. وها هو ذا يكاد يهوي..
ورغم ما يبدو على وجهه من هدوء ولا مبالاة، تحّس أنه يخفي شيئاً من عنـف غريـب يطفـو فوق تفاصيل حركاته، وممارساته الصغيرة.. كأنه يقذف سباباً ملغوطاً في وجوه الناس..
كلما انتصـف الليل، بتوقيت دقيق، ليلة إثـر ليلـة يـدخل "كالفـاتحين" مـع موكبـه المجلجـل دنيـا النائمين في حيّنا..
حمار كسول منهك، يجر بإعياء عربة مهترئة جمعت أجزاؤها من خليط أشياء عجيبة..
حديد وتنك ومطـاط وقضبان طويلة وقصيرة، تهتـز كلهـا، تئن وتـتلاطم كأنهـا حظيـرة قرود مـذعورة.. يتقـدمها صـاحبنا متنكبـاً عصـا مقشـته كالحربـة، متجـاهلاً أمـر جلبـة العربـة والحمار..
وحين يتقصّد الحمـار النـزول عن الرصـيف المرتفـع، مبتعداً عن المنزلـق الإسـمنتي، تقفـز العربة فترتطم دواليبها المخلّعة مرة واحدة على إسفلت الشارع..
يبتسم "أبو محمد" بخبث، بينما يمضي الحمار مباشرة إلى أكبر كومة من الفضـلات، يغـرز فيها رأسه بتلذذ..
وهكـذا ليلـة إثـر ليلـة صـار "أبـو محمـد" وحمـاره وعربتـه قضـاءً فـرض قسـراً علـى حيّنـا المسكين، وعلامة كريهة، مستمرة، لا تنقطع..

تمنيت في تلك الأيام لو أخرج إليه، أكسر رقبته ورقبة الحمار الأبله، لكنني لم أفعل.. أحسست أن بيننا رغم مساحة الجفاء بعض صفات مشتركة..
فأنا أعمل في الليل أيضاً، وكلما قصدت عملي إلى المطبعة القريبة، أقابله، أرمقه بنظرة أحمّلها أكبر قدر من الحقد الذي أكنّه له، فيجيب بابتسامة خبيثة تضيع بين تجاعيد وجهه الضئيل، وتختلط مع فوضى شاربه الكثيف المحتل مساحة كبيرة من وجهه، ولا يظهر لي من شفتيه أكثر من سنّه القاطعة الكبيرة ترتكز على وسط شفته السفلى تقسمها إلى شطرين..
لم أعد أذكر متى بادلته الابتسام للمرة الأولى، ومنذ ذلك اليوم تعودّنا عندما نتقابل أن نتبادل ابتسامات صغيرة ليس أكثر، وصرت حين تقفز العربة وتفرقع دواليبها على إسفلت الشارع، أبتسم ولا أجد تفسيراً معقولاً لما أفعل..
أشعر رغم قسوة الصوت الطاعن سكون الليل بنسمة رطبة تمّر من أمامي فأفتح لها صدري، وأفرغ براحة وحبور شحنة كبيرة من سموم تراكمت في أعماق صدري على مدار يوم كامل.. أتنفس بعدها بعمق، وأمضي إلى عملي..
فاجأني ذات ليلة وسألني، وهو يستند إلى عصاه بكسل :
- عندك أولاد يا أستاذ.؟
- أنا لم أتزوج بعد..!
تنهّد وأردف :
- خسارة يا أستاذ.. تستطيع أن تشّكل أولادك كيف تشاء، ما لم تقدر أن تصنعه لنفسك، وما لم يقدر أن يصنعه لك أهلك..
أرخى جسده المشدود وتابع :
- محمد سيتقدم إلى فحص الشهادة الثانوية بعد أيام.!
ومثلما يفعل دائماً، لّف إحدى ساقيه فوق الأخرى، وأسند جسده على العصا..
محمد أيضاً كان مسحوقاً هو الآخر، اقتحمه ذلك الإحساس دفعة واحدة حين أنهى دراسته الإعدادية في مدارس المخيم، وانتقل إلى مدرسة ثانوية في المدينة..
تلمّس بمرارة أطياف أمور كثيرة كانت مجهولة بالنسبة له، نقلته فجأة خطوات واسعة في محاولة إيجاد تفاسير معقولة، لكنّها استعصت، وكانت في حينه أكبر من قدرته على الإدراك..
لكنه بحسّ فطري بحت أيقن بأن هناك خيط واه يفصله عن تكريس هذه الحقائق، وتسخيرها زاداً للمعرفة المثلى، وحين وصل به القرار إلى فشل التلمّس، دفعه هذا الإحساس إلى مزيد من الإصرار على مواصلة التحصيل العلمي الذي وجد فيه السبيل إلى المعرفة، وطريق الخلاص..
- دخل محمد إلى الجامعة.. سنوات قليلة ويصبح طبيباً جرّاحاً.!
رسمت على وجهي أكبر ابتسامة وجدتها تناسب المقام.. أردت بإخلاص أن أشارك الرجل فرحته العارمة.. فقد كنت أعلم من خلال علاقتي به أن ذلك غاية ما يتمنى، وأقصى آماله..
من أجل ذلك تحمّل سنوات كثيرة من القهر والذل.. تحمّل الوحشة وأنين الضواري في ليال طويلة بطيئة وباردة، هو وحماره والعربة..

تحمّل وقفات انكسار أمام دفتر المراقب، وسط الفراغ والغربة وتحت الأضواء الباهتة الخافتة التي ترسم تحت قدميه صوراً للشياطين..
ليس له رفيقاً إلا الحلم، والأمل المتوهّج.. يمضي إليه، لا يلتفت إلى شيء آخر..
- ما هو عملك يا أستاذ..؟
سألني فجأة، كأنه يطلق رصاصة في وجهي :
- أعمل موظفاً في مطبعة..!
أجبته متلعثماً..
- وأنا أيضاً..
نظر إلي بطرف عينه وأردف :
- كل من يعمل في الدولة موظف.. أليس كذلك.؟
وقبل أن يترك أمامي فسحة للإجابة تابع بخيلاء.!
- رئيس البلدية موظف أيضاً.. مثلي.!
لم أدر ماذا أجيب، الحقيقة أنني لست موظفاً كما يفهم..
فأنا أعمل في مطبعة متواضعة يملكها رجل غبّي، أقضي الليل في تنضيد حروف أهم العناوين المثيرة للأخبار الطازجة والمفبركة.. وفي طباعة أوراق إعلانات الوفيات..
ارتسم في تصوّري دائماً أن الموظف الحقيقي هو ذلك الرجل الغبي الذي يلقي أمامي أوراقاً مشطّبة مكتظّة بكلمات وحروف بلهاء..
أما أنا..!
- مائة سنة وأنا موظف.. ماذا تبدّل الآن.؟ أقول له أنا موظف محترم يجيبني.. أنت زبّال.. صحيح أنا زبّال.. هل تعتقد أن مثل هذه الحياة تستحق أكثر من زبّال.؟ أقول له.. بدّل لي ظروف الحياة، أبدل لك عملي يجيبني.. هل يعقل، طبيب جرّاح وأبي.. زبّال..؟
لم أجد ما أقول.! قذف أمامي الأمر برمتّه فجأة وبسرعة خاطفة لم أستطع معها الاختيار.. هل أتمالك نفسي أولاً.؟ أم أبحث عن تفسير لضياعه الحزين..؟
- رضيت بأي شيء من أجله.. الأبله، يعتقد أنني أتلذذ بعملي هذا.. ألف مرة سألت نفسي.. زبّال، ودكتور.. وقررت أخيراً أن لا ألتفت لأي شيء قلت : سيأتي اليوم الذي أرفع فيه رأسي عالياً، يوم يقولون "أبو محمد" والد الدكتور.!
طأطأ رأسه بانكسار وتمتم باستسلام:
- كم تحمّلت من أجل ذلك..!
بدا لي "رغم انكساره" متحفزاً، مثل كل مرة يبدأ فيها معركة تخّصه..
هكذا كان عندما أرادوا إحالته على التقاعد. حارب وقاتل بكل وسيلة، وأبرز أوراقاً كثيرة تثبت وتقول بأنه ما يزال قادراً على العطاء..
وهكذا تحقّز حين أرادوا نقله للعمل مع وحدة السيارات، حارب أيضاً واستمر مخلصاً وفيّاً على طريقته لعربته المهلهلة وحماره العجوز..
وانتصر في معاركة تلك..
معركته القادمة تختلف.. تأتيه هذه المرة من الداخل، الخصم فيها هو الأمل المرتجى..
كيف يستطيع أن يشهر في وجهه السلاح..؟
تمتم كأنه يزّف شهيداً إلى مقبرة:

- سيسافر إلى بريطانيا للتخصّص في جراحة الأعصاب.. قال أن عليه أن يحسم الأمر قبل السفر..
رأيت كيف ينتصر الحزن اللئيم على جبل من التضحية وهو يتجول بلا حياء عبر تقاطيع الوجه الضئيل..
كيف يفوز شق المعادلة الأسهل على الأصعب.. المعادلة التي جاهد "أبو محمد" كل عمره ليجعلها طيّعة بين أصابعه، وحسب إرادته، صرعته هذه المرة، فاستسلم لقضائها..
- طبيب جرّاح أعصاب، وأبوه زبّال.. هــه..
شدّ حماره، والتفت نحوي قبل أن يمضي، وأردف:
- في قريتنا البعيدة الناس تأكل وتلبس وتكبر وحدها. ليس مهماً كثيراً أن يفهم أحدهم الآخر، ما ذنبي أنا إذا لم أفهمه.؟
تلمّس ظهر حماره برفق، ومضيا..
لاحظت حرصه الشديد حين تقصّد وهو يقود الحمار لينزل به بهدوء جّم فوق المنزلق الإسمنتي كاتماً صوت فرقعته المعهودة..
أحسست بصدق أن شحنة السموم المتراكمة في صدري ما زالت مستقرة في العمق..
فقدت صديقي ليال كثيرة، وفقد الحي الذي أسكنه جلبة "أبو محمد" وحماره وعربته..
في منتصف تلك الليلة، دوّت في فضاء الحّي فرقعة شديدة، أدركت على الفور أنها عربة حظيرة قرود مذعورة قفزت عن قصد على إسفلت الشارع الصامت..
قفزت بفرح أيضاً..
تصورت أنني لن أفرح هكذا إلا عندما ألقي باستقالتي من العمل في وجه صاحب المطبعة الغبي الذي يرمي إلّي بأوراق مشطّبة لأجمع ما كتب عليها من كلمات، بحروف من رصاص جامد..
رأيت "أبو محمد" أمامي، فارس قام من خرافات الأساطير، لم يكن مهزوماً هذه المرة، ولم يكن على وشك السقوط، بل كان قوياً كما لم أعهده من قبل..
ضحك في وجهي، بدت لي سنّته الأمامية القاطعة طويلة أكثر..
رفع كلتا يديه بمسرحية، تاركاً العصا تسقط، وقال :
- كنت أعلم أنه سيفهم الأمر على الوجه الصحيح.!
- محمد..؟
سألته بلهفة.
تابع يقول والابتسامة الكبيرة تملأ المساحة المتبقية من وجهه الضئيل:
- انتظرت طويلاً، وصبرت كثيراً.. أقول في قرارة نفسي، لا بد أنه سيعرف ذات يوم..!
أخرج من جيب معطفه المتّسخ ورقة مطويّة بعناية.. لّوح بها عدّة مرات في الهواء، ثم قدّمها إلي وفي وجهه شبح ابتسامة منتصرة..
لم أتبين رغم تدقيقي، مصدرها، لكنني قرأت:
والدي الحبيب..
قسوت عليك كثيراً، سامحني.. عرفت متأخراً أن عربتك وحمارك هما قدر فرض عليك، قد يكونان قيمة الحياة نفسها، وقد يكونان أي شيء آخر، وسيلة أو طريقة أو رفض أو قتال..

صدّقني يا والدي أنك أينما ذهبت وذهبنا لن نجد أكثر من حمار وعربة، أو عربة وحمار..
وصدّقني أيضاً أنني وحدي لن أكون قادراً على إلغاء ما فرض علينا..
سأكتب لك على الدوام متى ملكت إرادة المعرفة، ومتى عرفت أجوبة الأسئلة الكثيرة والكبيرة..
حتى ذلك الوقت سأحاول جهدي رتق الفجوة، بيننا..
المخلص، ابنك المحب.. محمد..
كانت الابتسامة كبيرة على وجهه الضئيل، دّس الرسالة بحرص في جيبه ومضى.. بينما لا يزال الحمار يغرز رأسه في كومة الفضلات بتلذّذ وسعادة غامرة..
في تلك الليلة، وأنا وراء الطاولة المليئة بالحروف الرصاصية، قذف رئيسي ورقة أمامي لأجمع حروفها..
كانت كلماتها مقتضبة وبسيطة..
أصابعي تتناول الحروف بسرعة فائقة تعلمتها من طول الممارسة، قرأت:
قررت حكومة بريطانيا المملكة العظمى طرد الطلاب الفلسطينيين من البلاد تحسّباً من نشاطهم الإرهابي المعادي والمهدد لأمن وسياسة الدولة..

المشـــرحة

لفحت وجهي حرارة الضوء الذي سطع فجأة فوقي مباشرة..
رأيت على حدود طيفه الدائري أناساً كالأشباح، يتحركون في كل اتجاه، أحذية طويلة، معاطف خضراء، أصابع، إلى جانب عدد لا يحصى من قطع فولاذية ملساء لامعة.. فملأني الخوف .
كأن أطرافي أخذت تبتعد عنّي شيئاً فشيئاً.. فصككت أسناني..
تمنيت صدر أمّي الواسع ألقي عليه رأسي المتعب وما يحمله من أجراس لا تتوقف عن الضجيج..
لكنّها تسلّقت هي الأخرى جداراً مدبّبة حجاره بحزن ليس له مثيل، وغابت وراءه إلى غير رجعة..
ولم يستطع غيابها أن يطوي صفحة عريضة من تاريخ يخصّني.. زرع في أعماقي قيماً سامية.. وشجّ بالمقابل قيماً أخرى أقل أهميّة.. وتركت لي من ذكراها صورة لا تغيب.. المسها كل لحظة.. أشاهدها.. حمرة شديدة تصبغ أنفها وذقنها الدقيقة مقدّمة أكيدة لسيل قادم من الدموع..
والدي يصرخ ويغضب كعادته لأتفه الأسباب.. وبلا أسباب..
رأيته يوماً يشدّ شعرها الغزير الأسود وهي مقرفصة تحرك شيئاً في وعاء على النار، ارتجفت من الخوف وأنا أراقب ما يجري تحتي في أرض الدار، أخفي رأسي الصغير وراء قضبان الإفريز الحديدية.
حسبت، أن الرجل يجب أن يكون هكذا في كل العصور والأزمان..
كنّا جميعاً "أخوتي وأمّي" مجموعة نشطة كالنحل ندور في فلكه، مسخّرين لخدمته وتنفيذ رغباته لأنه قدرنا الباقي، القادر على منحنا الحدود الدنيا من الكفاية..
أحببت أمّي حباً لا يوصف، كنت أصغر أخوتي، وأحسست بطريقة ما "رغم سني الصغيرة" أنني القلق الحقيقي وربما الأكبر الذي يعيش في رأس والدي، أو العبء الثقيل الذي ولد في وقت خاطئ وفي مكان لم يكن لي فيه مكان..
ولعل قدومي "المفاجئ" إلى هذه الدنيا قلب موازين محسوبة بدّقة متناهية، أهمها متطلّبات البقاء على قيد الحياة..
كبرت بصمت وبلا ضجيج.. لم أمرض في حياتي، لم ألبس جديداً حتى صرت في سن الشباب، لم يكن لي رفاق.. أمّي وحدها تدبّرت أموري بوسائل عجيبة، وحرصت أن تبعدني قدر ما تستطيع عن غضب والدي..
كانت طاقة من القدرة على الصبر والتحمّل.. تدفن حزنها مع خلجات صدرها في مكان عميق لا يدركه أحد.. وكنت أحّس بدقائق معاناتها وكلانا صامتان..
قالت يوماً لوالدي وهي تصبّ الماء على يديه :
- ماتت أم عمر..
نظر إليها بتعجّب ثم أردف وهو يبصق :
- كلّنا سنموت..

لم ينتبه أحد إلى وجودي خلف قضبان الإفريز، أشدّ قبضتي، أتمنى لو أملك صدراً أكبر يستطيع أن يحمل حزن أمّي..
قالت وأنفها الدقيق يصطبغ باحمرار شديد :
- أبو عمر سيتزوج ثانية .
رفع والدي حاجبيه دهشة وقال من بين أسنانه :
- أربعة أشهر فقط..؟ يا له من شيطان..
وكأنه تذكر شيئا تابع وفمه يمتلئ بلقمة كبيرة :
- إذا مت، سأصمد سنة كاملة..
لم يضحك، بل غرز في فمه لقمة ثانية..
بكت أمي ليلتها بحرقة شديدة وأنا أتظاهر بالنوم، مكّوماً عند قدميها..
في صباح يوم حزين.. أوقفت درّاجتي الناريّة "التي أستعملها للطواف على المزارع القريبة من المدينة أقوم على إصلاح المحركات المائية التي تملكها الجهة التي أعمل عندها" أمام بيت أهلي، وجدت الباب مفتوحاً، دخلت بهدوء، صرخ والدي بهلع :
- ماتت أمّك..
أحسست بنصل يغوص في صدري، أدمى قلبي وسقط إلى ركبتي، فجثوت، ضربت رأسي على الأرض، رأيت وجه أمّي منكفئاً على الوسادة، هادئاً قريراً..
بعد ستة أيام فقط، بدأت حرب حزيران .
قلت الحمد لله أنها ماتت، وإلا كانت ستموت من الخوف والعار والقرف..
شعرت أن سعادة بطيئة أخذت تدغدغ إحساسي الحزين وأنا أعلّق الأحداث المتسارعة على مشجب القدر المسكين الذي يجبرنا ونحن ننتقده، لنتمّسك به أكثر نؤمن بغيبه العجيب الذي يقلبنا في لحظة من أقصى مشاعر التمرّد إلى أقصى إيمان بالحكمة الخفيّة التي ترتّب سيول الأحداث..
أحببت أمّي.. كانت لحقبة مديدة من الزمن كل حياتي.. الدفء الأليف الذي حمل وجودي المهزوز سنوات طويلة، حمتني من هجير الظلم الآتي من كل مكان، وغرزت قسراً في ضميري وفي مسامات جلدي التزاماً خفي الملامح، جرى مع دمي، مشى رفيقي شوط العمر، حملته إلى كل مكان أثراً على جبهتي مع آثار قضبان الإفريز الحديدية..
أخاف من أي شيء، أهرب من أي شيء، أنتشل أعضائي وأكتم أنفاسي كلما غضبت، كي لا أكون مثلما كان ولا أحمل الإرث المهين حتى أخمص الأقدام، وكي لا ترتطم أمامي حمرة قانية تخضّب الأشياء حولي..
هل أنسى.؟ كيف يمكن أن أنسى..؟
تزوج والدي بعد سنة كاملة..
وصرت أرى "وأنا أتلظّى من القهر" كيف يذوب ويتناثر ما بناه أخوتي المنتشرين في مساحات القارات السوداء والبيضاء، في بلاد الرمل والنفط، وفي بلاد المشاعل الحجرية، وأخرى على أطراف دنيا منسّية، يلملمون القروش يختمون بها أمراضهم ووحدتهم وبؤسهم، يعبرون عليها حواجز الزمن ليرفعوا حجراً جديداً مع كل يوم في بناء البيت الذي يظلل الأسرة .

كيف تضيع المعالم.؟ حتى جزء الأريكة الضيق الذي حمل أعضاء أمّي المنهكة والمسحوقة بكل عذابات الظلم والغضب..
الأشياء الصغيرة التي شغلتها أصابعها في ليال باردة طويلة، رسم فتاة ترفع يدها إلى غيب لا يشاهد تتوسط ستائر النافذة، قصاصات الأقمشة تلملمها من كل مكان وتجمعها بأعجوبة فتصير ملاءات للأغطية، الحصير المطرّزة أطرافه بخيوط ملوّنة زاهية، الصور المعلّقة المشغولة من الصوف خيطاً بعد خيط، المدفأة المتواضعة المحشورة في زاوية المطبخ ما زالت تفوح منها رائحة الخشب المحروق..
كيف تضيع الصفات.. غضب والدي المستمر وتأففه الذي لم يكن ينتهي، سنوات الممنوع وغير الممكن تتلاشى وتحتل مكانها أشياء أخرى بلا قيمة على الإطلاق..
يوم استشهد أخي.. قلت : الحمد لله أنها ماتت قبل أن تعايش الحدث، وإلا كان سيموت كل جزء منها في اليوم ألف مرة .
قال والدي يحدّثني بشغف وانتصار عن ولده الرابع ويمسح على رأسه :
- سيصير هذا الولد إلى شأن عظيم، كتبت إلى السيدة غاندي، قلت لها أن ولدي هذا يشبه "بوذا" .
لم أملك جواباً.. بل نظرت طويلاً في وجه الصغير، قلت في نفسي.. بوذا..!
أدركت كم ظلمت أمّي..
حاولت تحريك أعضائي فلم أقدر، أحسست بخدر يتسرب من أذني ويسري إلى عنقي..
رأيت بوضوح هذه المرة شخصاً يخفي الكثير من معالم وجهه يقترب من كيس الماء المعلّق فوق سريري، أمسكت طرف ثوبه، فتوّقف..
- ستخدّرني..؟
- لا بد من ذلك..
عاودتني الرغبة على الضياع من جديد، فاستسلمت..
سألني الرجل الذي بدا مهمّاً :
- هل تشتبه في أحد له المصلحة في قتلك، أعني في محاولة قتلك.؟
قلت في نفسي، لو يسألني من ليس له مصلحة في قتلي.؟
جاهدت لأقول فلم أقدر.. رفعت حاجبي.. قال لرجل آخر يجلس إلى جانبه على طرف السرير :
- أكتب.. لا..
حدث كل شيء بسرعة غريبة، كنت عائداً من عملي على الدرّاجة الناريّة ذاتها، وحسبت أنني أختصر مسافة الطريق في دخولي إلى طريق آخر عبر إحدى المزارع المنتشرة.. كأن دبوّساً وخزني في صدري فلم أهتم، بعد قليل شعرت بشيء لزج ينزلق إلى بطني، حاولت تجاهل الأمر لكنني فقدت القدرة على الإحساس، ووجدت جسدي مربوطاً إلى هذا السرير..
قال الطبيب :
- رصاصة في الرئة اليمنى..!
تلاطمت في رأسي الكلمات.. تزاحمت واختلطت وتشابكت، كأن لساني التصق بحلقي لكنني جاهدت وقلت في نفسي :
- الحمد لله أنها ماتت قبل أن تراني هكذا..

- ماذا تقول..؟
جاهدت ولم أقدر على الإجابة..
رأيت في اللحظة نفسها رجلاً مقنّعاً يفرغ حقنة كاملة من المخدّر في كيس الماء المعلّق فوق السرير..
استطعت أن أراقب بعيون دافئة مستسلمة كيف انسابت قطرة المخدّر الزيتية في الماء الرائق وانزلقت بسرعة ثم استقرّت بهدوء شديد في عروقي..
جاهدت ثانية أن أتحدث وأقول شيئاً.. فلم أقدر..
فقد اقتحم المخدّر دمي كله ...!

استطــلاع

حواريّة

- مرحباً يا "عم"..
- أهلاً وسهلاً..
- أعتقد أنك من هنا.. أليس كذلك.؟
- إذا كنت تعني أنني مقيم هنا.! نعم ...
- نحن "يا عم" من تلفزيون ...... القناة الفضائية، نحاول "استطلاع الرأي" حول بعض الأمور الهامّة أعتقد أنك لا تمانع، وتكون ضيفنا..؟
- استطلاع..؟ أرجو لو تفهمني أكثر.؟
- قلت أنك من هنا.. يعني أنك فلسطيني، ولا بد أن الأحداث الساخنة الجارية الآن على الساحة الخاصّة والعامّة تهمّك.. أليس كذلك.؟
- نعم.. نعم..
- ماذا تعمل "يا عم".؟
- دهّان..
- تعني أنك متعهّد لأشغال الدهان.. أم ماذا.؟
- صحيح أنا معلّم دهّان، لكنني أعمل حاليّاً في ورشة.. أجرة يومية..
- كم تبلغ من العمر "أطال الله عمرك".؟
- قل أكثر من خمسين سنة..
- إن الاستطلاع الذي نسجّله هو على وجه التقريب "تقريراً لحالة" تتعلّق بمشاعر الناس المعنيين الذين عانوا من التشرد ما فيه الكفاية.. أقول بثقة أن الأحداث الجارية، بداية الخلاص..
- انتبه سنبدأ التصوير..
- ....
- ما رأيك "يا عم" بالمفاوضات التي تجري، منذ مؤتمر "مدريد وأوسلو ووادي عربة وغيره وغيره وحتى واي بلانتيشن، وشرم الشيخ"، وما تحقق منها حتى الآن على الأرض..؟
- والله شيء عظيم للغاية..
- أنت معي إذن أن التقدّم إلى الأمام، فاق التوقع..
- نعم.. أكيد أنه فاق التوّقع.. لكن لو تسمح، أنا على عجلة..
- لا بد أنك سمعت عن المكاسب التي حققها فريق المفاوضين من الجانب الفلسطيني، وهذا يقود بلا شك إلى الغاية.. "يعني" ما تطالبون به..
- والله سمعت الكثير.. "لكن بيني وبينك" لم أفهم شيئاً.؟
- سمعت أيضاً أن الأحداث العالمية المتسارعة فرضت الكثير من المستجّدات المتبدّلة على الأرض، مثلاً انهيار الاتحاد السوفيتي "المفاجئ"، حروب الخليج الأولى والثانية، الصراعات العرقية والطائفية في مناطق متعددة، استحقاقات الانتخابات الأمريكية

والإسرائيلية.. وغيرها، وهذا فرض بالتالي ضرورة ملحّة لتحرك إلى الأمام "في موضوع قضيتكم بالتحديد.."

- يا أخي.. أنا على عجلة، والوقت يمضي بسرعة، والعمل الكثير ينتظرني..

- أعني أن مجمل الأحداث "هذه" كرّس حقيقة وجود قوّة واحدة في العالم، قادرة على فرض ما تريد "بعدالة"، وقد ارتأت في أن الوقت حان لإحلال السلام الكامل في منطقة الشرق الأوسط..

- ماذا تريد أن تقول..؟

- "قيادة" الشعب الفلسطيني فهمت الرسالة، تعاونت.. وها أنت ذا ترى أنهم وصلوا بالصبر والمثابرة إلى مشارف الحلول الأخيرة..

- يعني هل أفهم أن ما يجري قرّب عودتي إلى البلاد.؟

- "الحكم الذاتي.." مصلحتكم تكمن في ظل هذا الحكم . وليس من شك أنّه يعني "باختصار" الحريّة.. تفعلون ما تشاءون، تخططون لحياتكم ومستقبلكم، ولا يغيب عنك أن ذلك كله يجري في ظلّ ومباركة دولة عظمى "بل هي الأعظم"، وتحت لواء دولة حديثة متحّضرة وديمقراطية.. هي الحرّية إذن.. أليس كذلك..؟

- والله كما تريد.. "لا حول ولا قوة إلا بالله.!"

- دعني أسألك.؟ كم مضى من عمرك وأنت تعيش في الغربة.؟ ألا تعتقد أن الوقت حان لينتهي كل ذلك.؟ تصوّر معي، ماذا يعني "الحكم الذاتي" الخاص بكم ومنكم.؟ إنه فرصة.. أرض وبلديات ومدارس ومجالس وفوق ذلك كله.. الرفاهية..

- لا بأس.. يا أخي أنا رجل شبه أمّي.. أين هي الأرض التي تتحدث عنها..؟

- قطاع غزة، وأجزاء من الضفّة..

- ممتاز ... أنا من "عكا" . متى وصلتم إلى الحديث عنها، تعال وسلني ما تريد.؟

- ماذا تعني.! ألا توافق معي أنها فرصة نادرة، لن تتكرر..؟

- يا صاحبي.. قلت لك أنني أعمل في ورشة، وقد قطع معلمي وعداً إلى صاحب البيت الذي نعمل به أن يسلّمه إيّاه منتهياً على التمام يوم بعد غد، يعني وأنا أقف معك هنا، الشغل متوقف هناك..

- أعتقد أنك لم تفهم الأمر جيداً.. دعني أشرح لك من جديد..

- الحقيقة أنني أفهم، وهنا تكمن المشكلة.. هل هذا "الحكم الذاتي" يعيد إلي بلدي، يعني أستطيع أن أنقل عظام جدّي إلى مقبرة النبي صالح، أن أعمل عرس ابني في منشية يافا..

هذا "الحكم الذاتي" يعيد لي ولأولادي ما نملك من أشجار الزيتون في "الغبسية".. أن أتجوّل كما أشاء في شوارع بلدي..

يا أستاذ.. أرجو أن تفهّمني أين فلسطين بين كل ما تقول..؟

- لا بد لي أن أقرر أن قيادتكم تتحرك بوعي وذكاء، قد لا تدركه أنت على بساطتك في الوقت الحاضر لأنه على قدر من السخونة والتسارع، ولست أعتقد أنكم رغم كل ما ذكرت "تدفعك العاطفة الجيّاشة المعروفة عنكم".. تفوّتون الفرصة..!

أرجوك أن تبتسم للكاميرا..

- أنظر يا حبيبي سأشرح لك الأمر مرة ثانية، أنا أعمل في ورشة علّي أن أسلّمها جاهزة ومنتهية بعد غد.. معلمي وعد الزبون بذلك.. وهو أمر على قدر كبير من الأهمية، ولكن

المهم أكثر أنني أنا الذي أعمل، وأنا الذي أحمل الفرشاة.! وإذا أطلت الوقوف معك، الشغل يتوقف أيضاً، عندها يا صديقي يصبح وعد معلمي إلى صاحب الشغل مثل الـ ....
فهمت أم أشرح لك أكثر..؟ من أجل ذلك أرجو أن تدعني أذهب لعملي..!
ثم تركه ومضى ...

كـعك الفقـراء

ملأت رأسه روائح الأدوية المرصوصة على الرفوف وفي الخزن التي تملئ جدران المكان الرطب، مختلطة مع صوت صرير الباب الخشبي الثقيل الذي ما يزال يئن هو الآخر..
ألف مرة قال لهم أن يضعوا قليلاً من الزيت على مفاصله الصدئة، ويوقفوا صريره الطاحن الذي يدّق في رأسه دون توّقف..
تناول قرصاً مهدئاً قذفه في حلقة وابتلع معه "دفعة واحدة" كميّة كبيرة من الماء.. ثم تهالك على الكرسي القريب يحاول أن يرخي أعصابه المشدودة..
فقد أمضى الوقت منذ الصباح ينتقل من مكان إلى مكان تحت أشّعة شمس آب اللاهبة، ينجز بعض الأعمال الضرورية التي أدرجتها والدته على قائمة أصّرت على أن ينجزها اليوم.!
لو أنها لم تبدأ طرح الأمر..؟
ألف مرة تحمّس ليقول لها أنه ليس مؤهّلاً ولا يقف على أدنى درجة من الاستعداد لولوج الدنيا الجديدة التي بدت أمامه مسؤولية مرعبة وثقيلة ومكبّلة..
لم يكن يخطر على باله مجرد خاطر أن يتزوج في سّنه المبكّرة هذه .
ولم يجرؤ على مواجهتها بالحقيقة التي يؤمن بها . فهو يدرك أنها من أجله وشقيقيه كافحت وناضلت وتحمّلت أقسى ما يمكن أن تتحمّله امرأة "حملت عاهة مستديمة رافقتها منذ أصيبت في طفولتها بمرض شلل الأطفال وترك أثراً له على صورة عرج واضح في ساقها اليسرى التي تنقص سنتيمترات عن طول الساق السليمة الأخرى . الأمر الذي يجعلها في المشي تقفز قفزاً ويتثنى جسدها ألماً، وتبدو مع كل خطوة تخطوها كأنها تلتقط شيئاً عن الأرض..
كانت جميلة، شقراء، بيضاء البشرة، تحمل تفاصيل وجه ملائكي وعينين زرقاوين، وكانت شابّة لم تتجاوز الثلاثين عندما أصبحت أرملة !"..
ويدرك أن هاجسها الدائم على الانتقام يتقدّم خطواتها بكل أمر تتّجه إليه . ويدرك السبب في ذلك، لكنّه لم يتصّور في أي يوم أن يكون وسيلة من وسائل انتقامها البدائي..
أن يتزوج.! في هذا الوقت وهذه الظروف، لا بد أنه الجنون بعينه.!
إنه في أفضل الأحوال موظفاً بسيطاً يعمل حديثاً في مستودع للأدوية، يقضي فيه أكثر من عشرة ساعات يومياً، وراتبه المتواضع الذي يساهم بأكثر من ثلثه لمصروف البيت وتدريس شقيقيه يكاد يكفيه..؟
أن يتزوج.. حرّك رأسه بحسرة، شعر بقليل من الهدوء، تمتم :
- ليتها لم تطرح الأمر منذ البداية.؟
لم يكن موضوعاً يطرح، بل كان قراراً أتخذ ووجب تنفيذه . هي كذلك لا تنتظر الرأي من أحد ولا تترك أقل فرصة للمناقشة، ما دامت تتصور أن تنفيذ ما قررته سيصير انتقاماً على صورة ما من والده الذي تركهم وهجرهم منذ سنوات عديدة..
لم تكن لها حيلة فيما حصل فقد خرجوا مع من خرج من البلاد أيام النكبة، وبسبب الفقر والحاجة سافر بعد وقت قصير للعمل في العراق، ولم تلبث هي المقيمة مع أولادها في بيت

أخيها الوحيد في مدينة بعيدة عن العاصمة، ليس لهم من معيل إلا الله، أن استلمت عن طريق شقيق زوجها "الثري" ورقة صفراء تقول "بعد مقدمات طويلة" أنها طالق..!
علمت فيما بعد أنه التقى مع امرأة هناك، غنية وسمينة.. أحبّها وتزوّجها..!
حسن.. لقد ارتكب والده ما لا يحتمل من الآثام، دفعوا جميعاً الثمن الغالي من طفولتهم وشبابهم بل وحياتهم كلّها، لماذا عليه أن يدفع الفاتورة الآن، وبهذه الطريقة..
ما ذنبه.؟ أن يتزوج.! أمر لم يخطر له على بال، كيف يفعل وهو يدرك واقع فقرهم وفاقتهم.. استطاعوا بالكاد بعد جهاد طويل تأمين سكن مستقل لهم "صحيح أنه متواضع ولا يعدو عن غرفتين" إلا أنه بيت مستقل على كل حال إلى جانب بيت خاله الطيب "الذي قدّم لهم ما استطاع من مساعدة رغم فقره هو الآخر، عندما وجد نفسه بين عشية وضحى مسؤولاً عن أخته وأولادها"..
في ذلك الوقت السهل أراد والدها "الثري" أن يبرهن، أنها رغم العاهة الشديدة التي تشكو منها تبقى قادرة على تحقيق وجود متألق لذاتها، يجعلها جديرة على دخول معترك الحياة "بالتحصيل العلمي" من أوسع الأبواب، وهكذا كان . وانصبّ اهتمامه على تدريسها اللغة الفرنسية، في أفضل المدارس، وتحت إشراف خيرة المدرّسين..
تقدم لخطبتها ابن عمتّها الشاب الوسيم، وافقت ووافق والدها وتم لهما الأمر، وعاشا سويةً في خير عميم ورفاه.. أثمر ثلاثة من البنين الذكور..
وجاء اليوم الذي أفيدت فيه من اللغة التي أتقنت تعلّمها في مدارس حيفا الخاصّة وأهّلتها حين دعت الحاجة للتدريس في مدرسة خاصّة أيضاً..
وأضافت إلى جانبها عملاً أخرا في تطريز الجلابيب النسائية بالخيوط الفضّية والذهبية يدوياً وفي المنزل.. مهنة أخرى أشدّ تعقيداً وأكثر جهداً، واستطاعت أن تحمل بجدارة عبء المسؤولية وتربّي أولادها، تطعمهم وتكسوهم وتعلمهم، صحيح أن ذلك جاء بحدود الكفاية الدنيا، لكنها استطاعت أن تحقق المعجزة .
وحين تقدم السن بها وأنهكها التعب وتفاقمت آلام ساقها المعطوبة اضطّرت لترك التدريس الذي يكلّفها عناء المسير كل يوم بين البيت والمدرسة التي تعمل فيها، والتي تبعد مسافة ليست قصيرة..
كبر "صالح" وصار ملزماً أن يشغل مكانه الطبيعي ويحمّل شيئاً من المسؤولية، عمل في مستودع للأدوية.. ولم يشكو أو يمتعض، بل رأى فيه فرصة طيبة ومناسبة يقدّم فيها واجب التعبير المادّي عن امتنانه وعرفانه لوالدته..
المرأة التي رآها في كل الظروف عظيمة.. وشغلت في مراحل حياته كلها موقع القمّة..
لو أنها لم تبدأ هذا الأمر.؟
إنه قرار لا رجوع ولا تراجع عنه، ولن يجد فيه ثغرة يلج من خلالها يبّدل الصيغ والمعايير . حتى أنها استكملت ترتيب التفاصيل . "كما في كل قرار تتّخذه" اختارت العروس، ومكان إقامتهما، حدّدت مواعيد الخطوبة وحفلة الزفاف وما يلزم لهما، ورسمت أشكال الهدايا التي تقدّم إلى العروس في مثل هذه المناسبات..
أحس وهي تحدّثه في جملة التفاصيل أن الأمر غاية في السهولة ما دامت العروس "بنت حلال" وترضى بكل شيء وبأي شيء في سبيل ستر الحال وبناء بيت زوجية حالم..
العروس المختارة "ربيعة" ابنة خاله.. مشكلته بدأت من هنا . "ربيعة".!

لم يتصور أن تكون له زوجة في يوم من الأيام، الصورة التي رسمها لها على الدوام أنها مثل أخته، فقد تربيا معاً، لعبا وناما صغاراً في بيت واحد وعلى فراش واحد، درسا معاً، ورسما معاً صوراً مختلفة لمستقبل كلٍ منهما.. هي صديقة، قريبة..
لكنه عندما فكّر فيها بطريقة مختلفة.. كما أرادت أمه اكتشف أنها إن صارت له زوجة فقد أوتي خيراً كثيراً..
تصير زوجة له.؟ آه كم هي جميلة وبسيطة وهادئة.. ابتسم بسعادة غامرة.. ولم يعترض . انتفض فجأة..
حتى هذه النتيجة التي جاهد على إقناع نفسه بها لم تكف لإقناع عقله بفكرة الزواج من اصلها.. المشكلة أكبر.. إنه الفقر والحاجة، والزواج مسؤولية ومصاريف كثيرة ومستمّرة..
كان حلمه الأهم أن يحيل أمه على التقاعد، كافح من أجل ذلك، ويعمل المستحيل ليصل إلى تحقيق حلمه.. وها هي ذي تطرح أمامه بداية جديدة، تفرش مسالكها الصعبة بالورود.. وتترك الأحداث تنساب أمامه بسلاسة ودفء..
- الغرفة الثانية جاهزة وتحتاج إلى قليل من الرتوش والتنظيف، غرفة واحدة تكفي وتزيد لي ولأخويك السرير والخزانة والأشياء الأخرى أمر بسيط للغاية.. نتعامل مثلما يتعامل الناس نتفّق مع أحد محّلات المفروشات ونسدّد القيمة "أقساطاً"، أمّا جهاز العروس والذهب، أقول لك.. لا شيء يذكر.. خاتم وحلق وملابس شخصية "عندها منها القسم الأكبر"، أمّا ما تبّقى من أمور ضرورية نستطيع توفير ثمنها من راتبك منذ اليوم وحتى موعد العرس، ولا تنسى أن خالك تعهّد تقديم ستائر النوافذ هدية لابنته.. بقيت تكاليف حفلة العرس.. علينا أن نسأل أحد من جيراننا لتسليفنا مبلغاً من المال لمدّة قصيرة بينما نجمع ما يأتيك من هدايا نقدية تقدّمها الناس عادة في هذه المناسبات . وإياك أن تنسى عمّك الثري، عليك أن تسافر إلى العاصمة "خصيصاً" تدعوه وعائلته بإلحاح إلى الحضور، ولا بد أن يقدّم المساعدة الكبيرة والرئيسة التي ستغطي بلا شك التكاليف كلها وتزيد، فأنت في كل الأحوال، ابن أخيه"..
ولا بد أن يعلم والدك أنني أنا المرأة العاجزة، "وبدونه" صنعت منك رجلاً..
حرّك رأسه باستياء، فقد عاد منذ قليل من العاصمة، ونفّذ بالتمام ما طلبته أمه، وحين زار عمه الثري لاقى منه ومن أسرته الكثير من الترحيب والتمنيات الطيبة، عاد على الإثر مستبشراً خيراً . وقبل أن يباشر عمله اليومي في المستودع، أنجز "سيراً على قدميه تحت شمس آب اللاهبة" بعض الأمور الأخرى، أهمها توجيه الدعوة إلى أصدقاء الأسرة المقيمين في المدينة خارج حرم المخيم..
استقبلته أمه ظهيرة يوم الزفاف، تطّير له الخبر السعيد المنتظر :
- أرسل عمّك الأمانة.. عليك الذهاب فوراً لاستلامها من مكتب سفريات "المدينة"..
سبقته خطواته، كان فقرهم أشدّ وطأة عليه من ظلم الدنيا كلّها، أحسّ في لحظة أن أثقالاً كثيرة بدأت تنزاح عن كتفيه المنهكين بالديون والأحلام السوداء والقهر وعلب الأدوية المبعثرة في كل مكان، أحسّ شحنة كبيرة من الهواء النقي تدخل رئتيه للمرة الأولى..
تنتظره "ربيعة" في ثوبها الأبيض الذي استعارته أمه من مكان ما، تجلس على مرتفع قليل تفتح يديها، تستقبله وتستقبل معه الحياة..

وقف ببلاهة أمام الموظف المبتسم، تناول منه بحذر علبة ملفوفة بأناقة وعناية، فتحها على عجل، لم يصدّق ما رأت عيناه..
أقراصاً كثيرة من "البرازق، والعجوة الطازجة.."
نظر قلقاً إلى الموظف مرة أخرى..
سلّمه مظروفاً أنيقاً أيضاً.. فضّه بيد مرتجفة.. أخرج منه ورقة بيضاء.. قرأ منها على عجل :
- ألف مبروك.. بالرفاه والبنين..!
قلّب الرسالة بين يديه مرات كثيرة.. ابتسم بخيبة.. ثم أنفجر يضحك ملء شدقيه..
عندما عاد إلى البيت . توجه على الفور إلى المطبخ . أحضر صحن الزيت . رشّ القليل منه على مفاصل الباب الصدئة..
وأسكت صريره الحاد..!

جدّي يزحف إلى الوادي المقدّس

عندما طرد "محمد خير. خ" من المدرسة بسبب إساءته إلى الهيئة التدريسية، ولأنه عنيد "وراسه يابس" كما أعلن المدير أمام الطلاّب الذين جمّعوا في باحة المدرسة. أضاف أيضاً بسخرية بالغة:

- إن هذا الولد سيصير إلى قاطع طريق..

يومها اعتقد الكثيرون من الذين يعرفونه عن قرب أنه سيغادر المدرسة مباشرة إلى دكّان والده السمسار في سوق الخضار "الهال"، ليعمل معه..

وحدي كنت على يقين أنه لن يفعل ذلك أبداً..

فقد اسّر لي ذات يوم، أن والده لص، يسرق الفلاحين.؟ يستغّل جهلهم، وثقتهم به، ثم يغشّهم في الميزان، وفي ثمن عبوات المحصول الفارغة، وفي أجور النقل، إلى جانب نسبة السمسرة التي يقتطعها بالحلال لتصير كلّ هذه الحسميات بما يعادل أكثر من نصف قيمة المحصول كله..

- تصّور ! الفلاّح المسكين يشقى ويعمل كل الموسم هو وزوجته وأولاده، ثم لا يستوفي نصف حقّه من الثمن الفعلي..

الحقيقة أن والده تمنى لو أن ابنه يترك المدرسة ويعمل معه، لكن "محمد خير" وصل إلى قرار لا رجوع عنه أن ما يمارسه والده حرام في حرام، ولذلك لن يستطيع المشاركة في ارتكاب الإثم..

خرج مطروداً من المدرسة الكبيرة التي كانت ذات يوم مضى بيتاً يخّص "باشا" في حّي من أحياء دمشق القديمة..

حمل دفاتره القليلة ومضى.. لم ينطق بحرف واحد، ولم يلتفت إلى أحد..

ومنذ خرج، اختفى، كأنه نقطة من ندى الصباح تبخّرت مع أول ضوء للشمس..

❁ ❁ ❁

كان جدّي يقول في كل مناسبة، "ابحث عن المكان الغالي واشتر الدار"..

فهمت فيما بعد أن الدار التي يقصدها في حكمته لم تكن تلك الدار التي نعرف فقط، وأن صفة الغلاء لم تكن في ارتفاع الثمن فقط، وأن المكان ليس مكاناً محدّداً أو مرسوماً على أية خارطة..

عاش مائة وست عشرة سنة.. قويّاً مستقيماً شريفاً ملتزماً بما تعلّمه من مشايخ المساجد والكتاتيب التي لم يكن يفارق مجالسها في طفولته وصباه..

لم يرتكب في حياته محرّماً، ولم يقترف إثماً، لم يدخّن ولم يرتد المقاهي، لم يلمس ورق اللعب ولا حجارة الطاولة، بدأ يصلّي وهو في السابعة من عمره، واستمر على ما تعوّد، يصلّي العشاء ثم يتناول خمس حبّات من التمر، ويحرص على طي زناره بعناية، يطمئن إليه، ويدسّه بحرص بالغ تحت وسادته.. وينام.

رأيته مرة واحدة يقرأ في كتاب غير "القرآن الكريم"، أذكر أن عنوانه "المستطرف في كل فن مستظرف"..

ولعل المتعة الحلال الوحيدة التي شدّته من متع الحياة الكثيرة، كانت النساء، فقد تزوج من أربع نساء على التوالي، كان والدي ابنه الذكر الوحيد من زوجته الأولى التي ماتت باكراً..
كان كما يقولون "فخذه مالح" على النساء، يتزوج الواحدة، تعيش في كنفه ردحاً من الزمن وتموت، يتزوج من أخرى، وهكذا.. وما كان ليتزوج إلا من أجمل النساء وأكرمهن نسباً، وهذا ما شهد به الكثيرون أمامي:
- أن زوجات "جدّي" كنّ من أجمل نساء "عكا"..
عرفت زوجته الرابعة الأخيرة "صبحية" كانت حقيقة آية في الجمال، بيضاء مثل قرص الفضّة، كأنها نسخة من فاطمة المغربية الشهيرة بجمالها "حسب رأي جدّي"
وكان أيضاً كما شهد الجميع.. من فحول الرجال..
في ليلة باردة تحدّثت مع جدّي ساعة وأكثر، أعاد على مسامعي سرد حكايات وقصص طويلة سمعتها منه مرّات ومرّات..
حدّثني عن عكا، عن الأتراك والإنكليز، وعن أشجار الزيتون الكثيرة التي يمتلكها في قرية "شعب" القريبة من عكا، في وقت لم تكن تقاس ثروة المرء بالمال أو بمساحة الأرض، بل بكثرة عدد أشجار الزيتون التي يمتلكها.!
حدّثني عن الزنّار الذي يتمنطق به على الدوام، أحسست به يهذي..
أيقظني والدي في الصباح، رأيت في عينيه بريقاً حزيناً، قال باستسلام..
- مات جدّك..!
أدركت يومها أن الموت هو أكثر الحقائق الوراثية وضوحاً..

❁ ❁ ❁

ولدت وفي فمي ملعقة من الذهب "كما يقولون".. لكن واقع حياتي كما أراه الآن، يتناقض بشكل جذري مع ما درسته حول الصفات الوراثية، وعلى الرغم من ذلك تصوّرت أنني أمثّل شذوذاً عن القاعدة كما أيّة حالة أخرى..
تعرّضت مثل الكثيرين من أبناء جيلي إلى حدث استثنائي، غير مفهوم ومليء بمتناقضات عجيبة ومتضاربة، جعلني " دعني أقول " ولدت مرة ثانية، من رحم مجهول هذه المرة، صحوت بعده مباشرة، وجدت نفسي محمولاً..
كانت فكرة الحمل بذاتها في تلك السن المبكّرة.. رائعة. فأنت خفيف وسهل، ولن تفكّر بقيمة أي شيء تتركه وراءك حتى ولو كانت ملعقة من ذهب، ولست تهتم في تلك السن المبكّرة أيضاً إلى ملايين الملاعق الخشبية التي تنتظرك بعد مسافة المتر الأخير..
كبرت قليلاً، بدأت أدرك أن ولادتي الثانية "وظروفها المأساوية" صيّرتني حملاً ثقيلاً وربما عائقاً بشكل ما على وا.......
تباً.. قصدت ألا أتحدث عن نفسي.! لكن الكلمات أبت إلا تتزلق، تسربت رغماً عني، لم أعترضها فتدفقت.. حسناً، لن أخوض في ذلك مرة أخرى..
خرج "محمد خير" من المدرسة ولم يعد، لا إلى بيته ولا إلى دكّان والده..
سمعت من صديق شاهده مرّات عديدة "مع أشخاص أعرف بعضهم مثل "فوزي. ق" الذي يقال أنه صنع "اللغم" الذي فجّر الوكالة اليهودية في القدس.. "وأبو منصور المغربي" الذي

نقذ عملية التفجير وآخرين" أنهم يتدرّبون في البساتين القريبة على استعمال السلاح وعلى فنون القتال، وقال ذلك الصديق:
- إن "محمد خير" قرّر أن يعمل على طريقته للعودة إلى "صفد" علّه يجد بنفسه أجوبة قاطعة لأسئلة أرّقته طويلاً..

❁ ❁ ❁

مات جدّي في صباح يوم بارد.. أحسّ بالموت يأتي إليه فاستقبل بوجهه الجنوب.. ربما إلى القبلة، أو إلى عكا. رفع إصبعه بالشهادة، ولم يستطع أن يفعل شيئاً أمام دمعة صغيرة تعلقت على زاوية عينه المتيبّسة.. لا هي سقطت، ولا هي ماتت معه..
سألته ذات يوم أداعبه. ماذا لو تتزوج من جديد.؟
ضحك بحبور، وتساقطت دموع من عينيه، ولم يلبث أن استعاد وجهه بريقاً خاطفاً.. شدّ على قبضته بقوّة، ولوّح بها أمام وجهي..
يوم ولد جدّي في مدينة عكا، أدركت القابلة التي ساعدت أمه على الولادة، كما أدرك جميع من حضر الولادة أن هذا الطفل النقي القادم، سوف يحمل موروثاً عن والده "الذي مات بعد ولادته بقليل ولا أعرف عنه الكثير" هو اسم يحمل دلالة معيّنة، طفا فوق اسمه الحقيقي وصار صفة التصقت به. ربما لأنه كان فحلاً أيضاً، ويحمل فلسفة خاصّة في تفسيره وممارسته للفحولة..
أنت تعرف كيف تلتصق مثل هذه الصفات بشخص يعيش في مجتمع صغير الكل فيه يعرف الكل..
لكن جدّي استطاع أن يصنع ملعقة من ذهب تخصّه..
في ذلك الزمن السهل، حقّق ما أراد، أعاد بجدارة اسم أسرته الحقيقي، وصار إلى شأن كريم في بلده "عكا". عمل في التجارة واستقام في خلقه وعلاقاته حتى أصبح مع مرور الوقت أحد أكبر تجّار زيت الزيتون في البلد، ومالكاً لكثير من أشجار الزيتون، وحقّق لنفسه ثروة ذات شأن..
كان قوّياً وأميناً وصادقاً يحترمه الجميع ويطيعه البعيد قبل القريب. وفي أسرته كان بلا مناقشة الآمر الناهي الفائق الإجلال والاحترام، وكل ذلك تحقق له خلال زمن قياسي نسبياً، ربما لاستمرار تماّسه المباشر مع أشيائه وتاريخه رغم ما علاها من غبار مؤقت. وكل ما فعله جدّي أنه نفض الغبار عنها وانتشلها، عاد إليها فعادت إليه هكذا بسهولة انسياب الكلمات.
مضى العمر به، تزوج كثيراً وأنجب، باع واشترى، ربح وخسر.. ثم فجأة، اقتحم حدث شائك رتابة حياته وأدخله رغماً عنه في زحمة عالم لا يخّصه، تعلّم فيه فن الصبر والقدرة على الانتظار، لا يملك إلا أن يقبض بحزم واستماتة على تلك الأشياء الصغيرة، سهلة التوريث، ملفوفة بين يديه، يراها ويلمسها كل ثانية، يشعر بدفئها، يقلّبها بين الفينة والأخرى حتى لا يعلوها صدأ، فتبقى طازجة وناضجة بين يديه دائماً، ومؤهلة لتأخذ مكانها في وقت مناسب، كأنها أمانة راية يورّثها بأمانة إلى القادمين القادرين على خلق الظرف الملائم في زمان ومكان ما...

❁ ❁ ❁

كنت صغيراً عندما تفرّغت لخدمة جدّي، فأحببته، وارتبطنا معاً بطريقة ما بصداقة حميمة، يحدّثني فأتعلم منه.. يبسط أمامي أوراق ذكرياته فأعيش معه في حقول الزيتون التي لم تفارق خياله يوماً، يأخذني في رحلة ذكرياته فأجلس معه أمام دكّانه نبيع ونشتري. علمّني الصلاة وكيف أقرأ القرآن، وحين أقرأ أمامه ما علمّني، يغيب وراء أفق عينيه المسدلتين مستكيناً كطفل، وطرقات حبّات مسبحته الخشبية تضيف إلى ساحة الخشوع المفرودة بيننا إيقاعاً رتيباً ومحبّباً..

في يوم مرض فيه مرضاً شديداً. قال الطبيب:

- هبوط حاد في عضلة القلب.. قد يتعرّض "للوفاة" في أية لحظة..

ثم استدرك بسرعة:

- الأعمار بيد الله..

لكن جدّي، رغم رأي الطبيب، عاش بعد هذه الحادثة أربع سنوات أخرى..

❁ ❁ ❁

تسمّرت أمام صورة ملصقة على أحد حيطان بيوت المخيم، تحمل وجه "محمد خير. خ"..

اقتربت منها أكثر حتى كاد أنفي يصدم الكلمات الكثيرة المكتوبة تحتها والبارزة:

- الشهيد البطل "محمد خير. خ" استشهد في معركة مواجهة مع العدو....

ولم أتمكّن من مواصلة القراءة، أطلّ محمد خير رأسه من الصورة.. همس في أذني..

- ألم أقل لك.!

قلت في نفسي..

- اكتشف الطريق، وعاد إلى صفد.!

كان والده الوريث الوحيد لجدّه الثرّي، هبطت عليه يوم مات ثروة تكفيه مائة سنة. أغنته عن العمل، ولم يلبث أن تعرّض إلى الحدث الشائك ذاته..

خرج مع أفراد أسرته القلائل من البلاد ليجد أمامه الجوع اللعين فارداً أشرعته على المدى المفتوح أمامه، جوع لم يسمع عنه من قبل، وقد عرفه فجأة، عاشه حقيقة حيّة وهو يناضل في كل سبيل للحصول على سطل من دبس التمر الرخيص زاداً وحيداً ولا شيء سواه له ولأسرته لأيام كثيرة، وبسببه صار بعد حين لصاً يسرق الفلاّحين وينام مرتاح البال والضمير، همّه الوحيد جمع المزيد والمزيد من المال.. حاولت أن أقول ذلك وأفسّره إلى "محمد خير"، لكنه سبقني وذهب بشخصه إلى صفد علّه يفهم..

❁ ❁ ❁

أعجب أيّما عجب كيف يقدر "جدّي" على البكاء بهذه السهولة.؟ إذا وقف للصلاة، إذا سمع تلاوة من القرآن، إذا داعب طفلاً، حتى إذا استمتع بأكل طعام لذيذ، وإذا عاد إلى أوراق ذكرياته.. يبكي..

قال وهو يحدّثني ذات مساء..

- بعد أن جئتم من "الزبداني" واستقر بكم المقام نهاية رحلة تشرّدكم الطويلة، وأقمتم في المدينة، أصرّ والدك أن أقيم بينكم..

سألته بلهفة..
- وزوجتك.. "صبحية".؟
أشاح بوجهه وأردف بصوت هادئ حزين..
- نقلوها إلى "المرستان".!
- مستشفى المجانين.؟
صرخت دون وعي منّي:
- المجنون يجب أن يعزل في مكان بعيد عن الناس الأسوياء.. أليس كذلك.؟
أجابني بهدوئه المعهود، ولم يلبث أن طأطأ رأسه وتمتم باستسلام..
- كيف أستطيع العناية بها إلى ما لا نهاية.. قل لي.. كيف.؟
سألته وأنا أقصد الخروج به من موجة حزن خفت أن تقضي عليه:
- أحببتها.؟
ابتسم بحبور، وأشرق وجهه، كأنه عاد لتوّه من مكان بعيد.. وبكى من جديد..

❁ ❁ ❁

ماتت "صبحية" مهملة منسية في غرفة مجهولة من غرف مستشفى المجانين بعد صراع يائس طويل مع مرض يستحيل الإبلاء منه..
كثيراً ما عانت المسكينة من نوبات صرع منذ عاجلها واحد من أفراد عصابة شتيرن اليهودية بضربة قويّة على رأسها بأخمص مسدسه وهي تحاول مستميتة إدراك الشاحنة الضيّقة الهاربة من جحيم الموت، تحاول أن تعلق أصابعها على حافة صندوقها الذي يحمل مع من يحمل، زوجها وابنها، تعثّرت ووقعت.
الناس الطيبون اعتقدوا أنها ماتت، حملوها مثل كيس فارغ، وألقوها فوق الناس المكدّسين في صندوق السيارة العتيقة..
عندما أفاقت بعد ساعات من إغماءها الطويل، اكتشفوا أنها جنّت..
يوم ماتت لم يعرف أحد بأمر موتها سوى عمّي.. بعد شهر كامل.. علم جدّي.
بكى بحرقة وانقطع بعدها طيلة أشهر ثلاثة عن مغادرة البيت، وهو الذي لم يكن يقضي صلاتين متتاليتين في مسجد واحد، يشدّ عكّازه بكلتي يديه وراء ظهره.. ويملأ الدنيا بخطواته القويّة..
لم أجد في ذلك الوقت تفسيراً لما يحدث مع جدّي، غير تصوّري أن "صبحية" وما آلت إليه تركت أثرها وخزة في ضميره، توجعه كلما أتى أحد على ذكرها. صار يصلي بكثرة، ويقرا القرآن ويبكي بكثرة أيضاً..
أصحو مع الفجر على صوت حركته وجلبته، فأرفع رأسي عن الوسادة لأستمع بكامل حسّي إلى صوته الرخيم..
"اخلع نعليك إنك في الوادي المقدّس طوى"
فأستكين.. أترك فسحة لصوته يدغدغ بها حلمي ويحملني إلى عالم بعيد.. يملؤني بفيض إحساس رقيق لا أقدر على وصف حلاوته..
هكذا كل يوم وكل فجر..

قرر جدّي بعد فترة اعتصامه، الخروج من عزلته.. لملم حاجياته القليلة، وشدّ زنّاره بعناية بالغة كما يفعل دائماً.. قال أنه سيمضي أسبوعاً على الأقل عند كل ولد من أولاده..
قبل غروب ذلك اليوم دخل عمّي جزعاً إلى بيتنا ووجهه ممتقع شاحب، قال:
- وقع والدي عن رصيف الشارع، ونقلته إلى المستشفى.!
قال الطبيب:
- كسر مضاعف في عظم الفخذ.. في مثل سنّه "وأشار إلى جدّي" لا نستطيع عمل أي شيء.. سوف يعيش حياته الباقية هكذا..
حملناه إلى البيت، وأدخلناه غرفته التي لم يخرج منها طيلة سنة كاملة، حتى مات..

❁ ❁ ❁

خاض جدّي في ذلك اليوم تجربة عمر كامل.. وقف وجهاً لوجه أمام أحداث ومجريات لم تكن لتخطر على باله..
ذهب إلى بيت عمّتي، ابنته الوحيدة التي مات زوجها منذ مدّة، قالوا يومها أنه قضى بسكتة قلبية، سمعنا فيما بعد أنه انتحر.. ومات مخلّفاً عمّتي الشابّة، وخمسة أطفال لم يتجاوز أكبرهم الثالثة عشرة من عمره، إلى جانب راتب تقاعدي مقداره مائة ليرة كل شهر، الأمر الذي دفع والدي ليقترح إقامة جدّي معها.. يومها رفض "جدّي" بإصرار ذلك الاقتراح ولم يبد لرفضه سبباً..
عندما قرر زيارتها أخيراً تصوّر أنه سيلاقي عندها الترحيب الكثير، لكنّها اعتقدت أنه جاء للإقامة معها، صرخت بلؤم:
- لم أدفن زوجي الشاب، لأعيش مع عجوز..
حمل طربوشه وعصاه وخيبة مائة سنة وأكثر، وخرج منكسراً.. ذهب يشكوها إلى عمّي الآخر الذي ضحك بسخرية وتهكم وقال:
- لو أنك تحدثت إليها عن الزنّار كانت تستقبلك بالأحضان..!
- الزنّار.؟
شخر كما يفعل كلّما أبدى دهشة أو سخرية وتابع:
- الزنّار بما فيه من ذهب وفير..
شخر ثانية وقال من بين أسنانه:
- ثمن مائة "تنكة" زيت خرجت بها من عكا.!

❁ ❁ ❁

سمعت بخشوع، والفجر يشّق طريقه من وراء الأفق..
"اخلع نعليك إنك في الوادي المقدّس طوى"
رفعت رأسي عن الوسادة قليلاً، وبقيت ساكناً بلا حراك حتى انتهى من الصلاة، مستلقياً على ظهره منذ انكسرت فخذه، جلست إلى جانبه أراقبه وهو يرفع كفّيه إلى السماء يلهج بالدعاء كما يفعل على الدوام، أدار رأسه نحوي فجأة وقال:
- الرضا الذي يحمله والدك، ينبت جبلاً من أشجار الزيتون..
استعاد هدوءه، وتمتم باستسلام:

- اقرأ لي من سورة يوسف..
- حدّثني عن الزنّار أولاً..
- الزنّار أيضاً.. الزنّار.!
حرّكت رأسي بإلحاح، فبكى جدّي، اقترب بوجهه منّي وهمس:
- إياك أن تقع في حلم غبي.!
اخفض صوته أكثر وتابع..
- وقع عمّك فيه.. وأخذ الزنّار..
أغمض عينيه بخمول.. تحسس فخذه المكسورة بتلذذ، ثم أمسك يدي بقوة وهزّني:
-الوصيّة شيء كبير أليس كذلك.؟
- نعم.. نعم.!
- وها أنا ذا أوصيك، متى عدتم إلى عكا، انقلوا عظامي إلى مقبرة "النبي صالح". أسمعت..
- نعم.. نعم.!
أغمض عينيه من جديد مرتاحاً هذه المرة حتى حسبته طار إلى عالم آخر.. لحظات ثم انتفض كأنه تذكّر شيئاً على قدر من الأهمية.. قال بنبرة حادّة:
- أين هو زنّار زمان.؟ لم يخلو يوماً من الذهب.. ولم لا.! الست تاجراً أبيع وأشتري.؟ الناس كلها تملك زنانير، هذا ليس سرّاً عن أحد.. وكل زنّار فيه ما فيه..!
تأوه حسرة، وصمت..
عرفت أنه يهذي.. أسند رأسه الضعيف على الوسادة، وراحت أصابعه تداعب حبّات مسبحته الزيتونية.
همس باستسلام:
- رأيت زنّاري المغتصب ينوح بين يدي عمّك.. قلت نفذت إرادة الله..
سقط جدّي يومها عن الدرج الخشبي في دكّان عمي وهو يقاتل بعناد مدافعاً عن زنّاره.. فاته عجزه، وأكثر من مائة سنة فوق كتفيه.. وانكسرت فخذه..
عاش جدّي مائة وست عشرة سنة.. مات بعدها بصمت حزين..

❁ ❁ ❁

قال والدي ونحن نغادر المقبرة..
- كان جدّك حريصاً منذ مغادرته "عكا" على أن يحتفظ بمفتاح دكّانه.. في زنّاره..!

القـــرار

يبدو أن المفاوضين استسلموا بعد أن ضيّقت حولهم الحلقة، فلا هم قادرين على التقدم، ولا على التراجع أغلق الباب خلفهم.. ووقعوا في القخ الخبيث ....
انقض على المذياع ونقل المؤشر إلى محطّة أخرى..
تمتم بقرف :
- السياسة.. السياسة.!
سبب المصائب التي أوصلته وأسرته إلى حالة فقر بائسة..
طرد بسببها من عشرات الوظائف التي تهيأت له..
هكذا تتّهمه زوجته "أم بدر" وتؤكد أن اهتمامه الأجوف بالسياسة يقف وراء السبب في فشله المتواصل فهو يلاحق نشرات الأخبار من أي مصدر، يسمع ويعلّق ويتحدث ويقاتل إذا استدعى الأمر..
وفوق ذلك فإن آراءه متطرّفة وخاصة جداً ولا تنفتح على مستجدات العصر، ويصّر بعناد على أن يضعها "حسب قناعته" في مقدمة ضروريات الحياة بل ويعتبرها أهم بكثير من حّد الكفاية الدنيا له ولأسرته..
مجنون..!
ابتسم ولوى شفته الغليظة وتمتم :
- لا بد أنها على حق.! تركت عملي الأخير لأن معلمي لا يوافق على قتل المدنيين المستوطنين..
حرّك رأسه باستخفاف وأردف ساخراً :
- يا له من أبله.. كل من يأخذ شيئاً يخصّني، ثم يرميني خارجاً.. عدوّي.. كيف يكون شعوره نحوي أنا "المدني" إذا ما استوليت على سيّارته مثلاً، وادّعيت أنها ملكاً خالصاً لي.؟ يقبّلني ويضمّني إلى صدره.. هـه..!
"ضحك باستهزاء"
- مجنون.. كلهم مجانين..
عاد يتحدّث في السياسة من جديد..! قفز على المقعد الوثير مرتين، وعانق عجلة القيادة بقبضتيه القويتين وتمتم بإصرار :
- لا بد أن أحتفظ بهذا العمل الجديد، ولتذهب السياسة إلى الجحيم..
السياسة، كيف يستطيع أن يفصلها عن الحياة.. الخبز سياسة.. القهر سياسة أيضاً.. الموت والولادة سياسة.. "أبو محمود" الذي تسبب دون قصد بدهس رجل في حادث سير رماه في السجن سياسة..
أطل عليه من بين القضبان بوجه ممتقع وسأله بلهفة :
- هل حصل المصاب على تقرير قطعي.؟
وعندما أجابه بالنفي، قطّب حاجبيه وتمتم :
- لو أنه مات..!
لم يفهم الأمر للوهلة الأولى لكنه علم فيما بعد أن الإصابة في حوادث السير أخطر وأهم بكثير من التسبب بالوفاة .

في حالة وفاة المصاب ينتهي الأمر، وتقتصر ذيوله على إجراءات روتينية وتقديرية، غالباً ما تحسم بموقف أريحي من أهل المتوفى مسامحة وتسليم الأمر لله صاحب القضاء والقدر والأجل المحتوم الذي لا يزيد ولا ينقص .
أما في حالة الإصابة، فالأمر يختلف بالكلّية، الصادم الموقوف يسجن ولا يخلى سبيله قبل حصول المصاب على تقرير طبّي قطعّي..
الأسوأ إذا خرج المصاب يحمل عاهة دائمة تنتقص "كذا" في المائة من قدرته على الإنتاج مما يفرض على المتسبب "السائق في كل الأحوال" التعويض المستمر على المصاب مادّياً وقد يستغرق الأمر عمره كله..
- مسكين "أبو محمود" والله لا يستحق هذا الظلم..
"همس بصوت خفيض"
- لو أن المصاب يموت.!
استطاع "أبو بدر" بعد فترة البطالة الأخيرة التي دامت ستة أشهر وأكثر أن يجد عملاً بوساطة أحد أقارب زوجته.. "سائق سيارة نقل بين المحافظات، براتب جيد وحوافز جيدة أيضاً،"
باشر عمله الجديد في سعادة غامرة.. هو في الأصل من رعيل السائقين الأوائل الذين عانوا منذ البدايات ما عانوه، ويرجع لهم الفضل بشكل ما على مجمل عمليات النقل والتنّقل الأولى التي ساهمت بطريقة ما أيضاً في تعميم ونشر النهضة المتواضعة الحديثة، ونقل الحضارات "إذا صحّت التسمية" بين البلاد المختلفة التي يطرقونها على كامل المستويات..
شدّ على أسنانه، وألقى نظرة سريعة على أجهزة السيارة وقال بصوت مرتفع :
- ربما تكون فرصتي الأخيرة.. الأوضاع في البيت لم تعد تحتمل أكثر، والديون أغرقتنا، لا شك أن "أم بدر" العاقلة الوحيدة.. فهمت الحياة أكثر مني.. السياسة لا تنفع مع معدة خاوية..
حرّك ساعد السرعة وانطلق في رحلته الأولى، وحرص أن لا تقترب يده من مفتاح المذياع بينما راح يدندن لحن أغنية بتناغم متّسق مع اهتزازات السيارة..
اقترب من مواقع الاستراحات المنتشرة على جانبي الطريق، فتح النافذة الجانبية يستقبل بكامل مساحة رئتيه رائحة اللحم المشوي..
ابتلع ريقه، تذكّر أنه لم يحمل لحماً إلى بيته منذ مدّة طويلة . هّز رأسه أسفاً، وأغمض عينيه يعتصر شعوراً ملأه خجلاً وخيبة.. بينما انطلقت السيّارة تطوي تحت عجلاتها مسافة الرحلة التي بدت له طويلة أكثر مما يجب..
لم يشعر خلالها بالملل، ولم يحاول تبديد الوقت في سماع الراديو بل راح يستعرض في رأسه صوراً انتشلها من الماضي بدا بعضها سعيداً مشرقاً، وبعضها الآخر ما زال يعيش غصّة في صدره..
محطات قليلة من الفرح تخللت رحلة عمره، بينما رافقه فقره مع كل خطوة.. يحلم كل مساء بفجر آت لا بد أن يكون أفضل . وها هو ذا على مشارف الستين من العمر، ما زال ينتظر "فجراً" أفضل تشرق فيه شمس جديدة من فضاء ما..
أتقن عملية الانتظار، وأتقن التعامل مع الفقر وأشكاله المتفاوتة بين الحاجة والحاجة الماسّة، وفي كلتا الحالتين استمر يطوي الأيام رقماً على الهامش..

قفز فجأة أمامه وجه صديقه الوحيد "أبو محمود"..
- "أبو محمود"..!
وأطلق زفرة طويلة..
لا شك أنه الوحيد الباقي على قيد الحياة من رعيل رفاقه السائقين الأوائل، بعد أن قضى الآخرين واحداً تلو الآخر، كانوا رفاق أيام الشقاء.. الجميلة . يوم كانت رحلة سفر إلى الرياض مثلاً تتّطلب استعداداً خاصاً، وتفرض شروطاً صارمة على السائق أن يكون جلداً وصبوراً وقادراً على التعامل بكفاءة مع مفاجآت كثيرة متوقعة أحياناً وغير متوقعة في أحيان أخرى..
ولا بد أن تستغرق الرحلة عشرة أيام وأكثر، في قلب صحراء مرعبة ليس فيها طريق أو دليل . بل كانوا يبتكرون أساليب عجيبة للاستدلال، أحياناً في تجميع أكوام من الحجارة الكبيرة يطلونها بالكلس وأحياناً أخرى براميل مثقلة بالرمل والطين يثبّتونها في مواقع رئيسة، تحمل أسماء واضعيها .
برميل "الحاج صافي" وآخر لـ "أبو الجود" وثالث لـ "أبو موفق" وهكذا..
إيه.. أيام صعبة وجميلة وجد فيها تحدّياً أمام شيء ما، وعلى صورة ما، وفي نهاية كل رحلة يزهو بشعور انتصار يملأ صدره.. تماماً كما يشعر الآن ...
عاد في مساء اليوم التالي إلى بيته يحمل بعض الحلوى الرخيصة، وأمضى مع زوجته وأولاده أمسيةً جميلة أضافت عليها ابتسامات الجميع لمسة من التفاؤل الساطع..
بدا لهم أن الأمور أخذت تسير إلى الأفضل، ولم يفته خلال الجلسة الحميمة التي طال انتظاره لها أن يعلن أمام أسرته الفاضلة عن قرار دعّمه بوعد قاطع على جلب شيء من اللحم الحقيقي في عودته القادمة وكان متلهّفاً إلى تحقيق وعده الثمين..
في طريق عودته الثانية من رحلة نقل بضاعة إلى محافظة بعيدة . توقف في قرية على الطريق أمام دكان جزار فرغ لتوّه من ذبح عجل سمين.. اشترى قطعة كبيرة من اللحم، حملها بخيلاء وسعادة، أجلسها برفق إلى جانبه على المقعد الوثير.. وواصل رحلة العودة والأحلام الجميلة تداعب خياله..
بعد مسافة سير قليلة، فجأة.. مّر من أمامه طيف كالشبح، حاول بكل ما أوتي من كفاءة أن يتفاداه لكنه في اللحظة الأخيرة صدمه بقوة، ألقته في وسط الشارع يتخبط كطير مذبوح..
أحس في اللحظة نفسها أنه دخل حلقة أخذت تضيق حوله..
تراكمت أمامه الصور مختلطة، زاغت نظراته ثم استقرّت لحظة خاطفة على كيس اللحم النائم إلى جانبه، وارتفعت إلى المرآة تعكس صورة الرجل المصدوم..
فوجئ بصورة "أبو محمود" يطل عليه من خلف القضبان بوجه ممتقع..
وقبل أن يستردّ جأشه، ركّب السرعة الخلفية.. حرّك سيارته الثقيلة إلى الوراء بهدوء، مصوّباً بدقّة "عبر المرآة الجانبية" الإطار الخلفي تماماً إلى رأس الرجل الملقى وسط الشارع العريض.. يتخبّط بين الموت والحياة..
و.......... جيئةً وذهاباً..
ثم توجّه إلى أقرب مخفر للشرطة.. وسلّم نفسه..

الأعـــرج

وجدتني أجلس معه حول طاولة واحدة.. هكذا..
دخل من البـاب الكبير يقفز بين الكراسـي المبعثرة كدجاجة متّجهاً صـوبي مباشـرة، جلس قبالتي، وضع عكازه الغليظة على الطاولة، وراح يتفرس في وجهي .
تبينت، بعد أن هدأت أساريره الغائبة في فوضى شعر رأسه ولحيته وشاربه، أنه يبتسم..!
لست أخفي رغبتي الجامحة في التحدّث مع الرجل، فقد شدّ اهتمامي وأيقظ فضـولي لمعرفة المزيد عنه منذ اللحظة التي رأيته فيها لأول مرة .
يومهـا كنـت جالسـاً فـي المكـان ذاتـه خلـف الواجهـة الزجاجيـة المطلّـة علـى شـارع الحـارة الضـيق، جـاء يقفـز مـع عكـازه الغليظـة غاضـباً مزمجـراً كأنـه أنثـى ذئـب فقـدت أشـبالها، والرجال يبتعدون من حوله كالفراخ، وما أن وصل أمام باب المقهى، حتى توقف ونظر في وجوه النـاس مصـوّباً عكـازه كبندقيـة إلـى صـدورهم يوشـك الضـغط علـى الزنـاد، ثم صـاح بصوت جهوري واضح :
- ثمن "بطحة عرق" يا أولاد الـ.......!
وتسّمر فـي مكانـه إلـى أن أتـاه صـبي المقهـى بمـا طلـب، بعدهـا غـادر بهـدوء.. وكأنـه رجـل آخر..
أحسست مبالغّةً في افتعاله مظهر العنف . خيل إلي أنـه يحـاول أن يبـدو مختلفـاً عمّـا هـو فـي الحقيقة..
كما أيقنت أيضاً أن الناس المتواجدون في المقهى يدفعون له ما يدفعون عن طيب خاطر..
تكرر المنظر ذاته أمامي، وفي كل مرة كان "الأعرج.. وهو اللقب الذي عرف بـه" ينـال مـا يريد . لكنني للحق، لم ألحظه مرة واحدة وهو في حالة السكر .
قال لي صاحب المقهى ذات يوم يدعم ملاحظتي :
- عندما تطلب رأسه الخمرة ينقلب إلى وحش، ولم يحدث أن شاهده أحد يترنح..
راحت أصابعي تشتت ارتباكي "بسبب دخوله المفاجئ" بمداعبة العصا الغليظـة الملقاة علـى الطاولة أمامي ملفوفة بقطع كثيرة من القماش كي تكون أقل قسوة من الخشب العـاري وهـي تسند كتفه الثقيلة .
قال وهو يتابع حركة أصابعي :
- عندما تفقد ساقاً عليك أن تتقن التعامل مع العصا.. بعد أكثر من عشر سنوات من الخبـرة تصبح قطعة منك وقد تصبح أهم القطع العاملة من أعضائك..
قاطعته :
- فقدتها في أحداث لبنان.؟
ودون أن يلتفت إلى سؤالي، تابع :
- دفعت لي بالأمس عشر ليرات كاملة..!
أردت أن أقول له أن الأمر غير مهم، لكنه لم يترك لي فرصـة.. قال بحماس :
- عشر ليرات في هذا الوقت وهذا المكان.. تدفعها إلى شخص لا تعرفه..!
أجبته بإصرار :
- بل أعرفك تماماً.!

فتح عينيه بدهشة.. تابعت..
- أنت "يحيى الفاضل" فدائي سابق.. فقدت ساقك في لبنان.. سكّير وعاطل عن العمل.. و....
- أنت إذن تصدّق أنني فقدت ساقي هناك.. وأنني فدائي..!
فرد يديه على الطاولة، أحسست أن مساحة ابتسامته اتسّعت أكثر، ولم يلبث أن ضرب قبضته على عكازه.. ووقف.. مّد يده الواحدة وصرخ..
- ارفع صوتك.. أخبر الناس.. قل لهم أن الأعرج لا يكذب..
التفت إلي ثانية وتابع :
- "برهان السايب" سبب كل المصائب التي حلت بي، أقول لهم ذلك ولا أحد يصدّقني ...
الحقيقة أنني سمعت شيئاً من هذا القبيل، وقد تعرّفت ذات يوم مضى على "برهان" ولا أستطيع أن أطلق حكماً على الرجل، فقد رأيته دمثاً أنيقاً دائم الحيوية، إذا تحدث فبصوت هادئ، لا تفارق الابتسامة شفتيه..
يحاول بجهد ملفت أن يوحي إلى أهميته وكثرة علاقاته الوثيقة مع المسؤولين وذوي المراكز، وذلك بتكرار عرضه على ذوي الحاجات لمساعدتهم في أمورهم ومشاكلهم مع الإدارات وبخاصة ما يتعلق مع التنظيم الذي ينتمي إليه..
ويوحي لك أيضاً ولو أنك تجالسه للمرة الأولى أنه قادر على اجتراح المعجزات وتحقيق المستحيلات، وأنه "وهذا هو المهم" يقف بإيمان وصلابة في وجه من يخالف أو يساوم في موضوع الحقوق الشرعية للشعوب المقهورة، المتلخصة في "عودتهم إلى بلادهم" وتبرير الوسائل الممكّنة إلى تحقيق ذلك، وربما بسبب مواقفه هذه استطاع على المستوى الشعبي والرسمي "حسب موقع المكان والزمان" أن يكون حقيقة في الموقع الذي يدعّيه..
ولست أنكر أنني سمعت أيضاً سواءً بشكل مباشر أو غير مباشر وأحياناً من أشخاص ليست لهم مصلحة، أن "برهان السايب" يختلف تماماً عن الصورة التي تبدو "أو يبديها" أمام الناس وأنه وصولي وانتهازي أو كما يقول المثل المصري الذي لا أستسيغه أبداً "إذا جاءك الطوفان ضع ولدك تحت قدميك"..
ولم يكن أمر الرجلين ليعني لي شيئاً، بل لم أكن أتوقف عنده لولا مساحة الفراغ التي أعيشها بعد أن أحلت على التقاعد بعد بلوغي السن القانوني..
وجدت نفسي بين العشية والضحى مركوناً بين جدران صامته تهمس كل لحظة في أذني..
متى تموت.. متى تموت..؟
"إنها لعبة الحياة.. اللعبة التي تؤمن وأنت تبدؤها على الرغم منك أنك الوحيد المؤهل لها والبارع في ترتيب فصولها وأدواتها، حتى وأنت تمارس بشغف " بفعل الواقع والعادة" هذه اللعبة تفرح وتعتقد مع أول النطق وأول خطوات المشي وأول قبلات اليد والوجه أنك المميز الوحيد على وجه الكون . وحين تبدأ في اكتشاف المتناقضات التي يفرضها الزمن تبدأ أيضاً بتقبّلها وتبريرها..
وتصل على الرغم منك للرضى بفقدان كل ذلك من بين أصابعك على مرآك وسمعك..
وتقول في لحظة بؤس وتوّحد.. كيف مضى العمر.؟

تكتشف الزوجة بعد عشرات السنين أنها أهدرت عمراً مع من تستحق أفضل منه لكنها "وبفعل العادة والتعوّد" ترضى بالواقع رغم آلامه طالما أن هذا الذي لا يستحقها يوفر إلى حدّ ما أهم مستلزمات البيت..
ويصبح على الرغم من ضرورته رقماً على الظهر بما يتطلب بالتالي الالتفات إلى الرقم الآتي على الصدر، ويصبح باختصار، وسيلة..
وعليه أن يرضى وأن يفرح بهذا الرضى، فالأولاد نتاج أب وأم وهم الأهم، هم المستقبل الذي نطمئن إليه عند الحاجة .
لكن هؤلاء أيضاً وتبعاً لسنّة الحياة يكبرون ويعملون ويتزوجون وينجبون وتصبح الأمور مختلطة ويصبح المهم تالياً للأهم..
لعبت اللعبة مثل غيري "وحين شملني قانون التقاعد" اكتشفت مثلما سيكتشف غيري أنني لعبت عمراً طويلاً في صفوف الاحتياط .
ألفيت نفسي وحيداً في بيت كبير رغم طيف زوجتي، تملؤه حركة وتأففاً وبكاءً وانتظاراً.." ولست أشكو.. بل أقف "وهذه نعمة خفيّة" راضياً بالقضاء.. أقول مستسلماً.. إنها سنّة الحياة .
اكتشفت بعد فوات الأوان أنني أمضيت عمراً أركض في مساحة هامش ضيق يكاد يتسع لكتفي ليس أكثر ...
بدأت أتردد على هذا المقهى بالذات، فهو الأقرب إلى بيتي وهو الأقل كلفةً، ويجمع بين روّاده الكثر بعضاً من أصحابي وأصدقائي .
وبفعل التقادم والاستمرار أصبحت ركناً ثابتاً في ذات المكان وفي أوقات محددة أيضاً .
وكان "الأعرج" أكثر من شدّ انتباهي واهتمامي حتى أحسست به إدماناً في عروقي..
رأيت فيه صورة ما لحالة ظلم لا توصف، تسببّت بعد حادثة قطع ساقه إلى طرده من التنظيم الذي أعطاه المعنى المشرق لحياته عبر نضال حقيقي مخلص، وسببّت أيضاً هجر زوجته له وعودتها إلى بيت أهلها في صيدا، وهروب ابنته الشابّة مع عشيق لها لينتهي بها الحال إلى عاهرة مأجورة في أحد ملاهي مدينة بعيدة، وإلى سجن ولديه الاثنين بسبب جرائم كثيرة ارتكباها تراوحت بين السرقة وتعاطي المخدرات والاحتيال..
ليجد نفسه في نهاية المطاف وحيداً في بيت حقير.. عاجزاً سكّيراً مرتهناً بقاءه بجود الآخرين..
توطدت بيننا علاقة من نوع ما، تكررت الجلسات بيننا وأحسست أن الرجل يرتاح التحدث إلي . أعترف أنني كنت طيلة الوقت أتحيّن فرصة أقتنص فيها ومنه قصّته الحقيقية التي سمعت بها على صور متضاربة ومختلفة من أطراف عدّة، والتي جعلت منه ما جعلت..
وقد جاء الأمر على غير موعد وبلا ترتيب . جاءني ذات ليلة جلس قبالتي كعادته فتح ذراعيه على امتدادهما وابتسم بمسرحية وقال :
- سأخبرك أخيراً بما تريد، ولست أبالي إن صدّقتني أم لا..
أجبته باضطراب :
- أنت تتحدث وأنا أستمع..
أرخى راحتيه بإعياء واستسلام، وبدا لي أنه يقتلع الكلمات من حلقه الجاف :
- أحياناً أنا نفسي لا أصدق ما جرى، وغالباً ما أعجب كيف تجري وتترتب الأحداث..

أنت تعلم أنني كنت مع الفدائيين . الحقيقة أنني من الأوائل الذين تطوعوا في العمل الفدائي، يومها لم نكن نضع بالحسبان ولم نكن نصدّق أو نطمع أن التطوع للحرب في سبيل استرداد الوطن الذي هو وطن الجميع.. يكون مأجوراً .
هذا ما حدث.. ومع توالي الأشهر صار الأمر أكثر من عادي..
شاركت في معارك كثيرة صعبة، وأحياناً مستحيلة.. أنت لا تتصور كيف يكون الأمر وأنت في قلب معركة حقيقية، ورغم ذلك صمدت وبقيت على قيد الحياة ولم أتراجع..
إلى أن جاءنا "برهان السايب" ذات يوم متطوعاً هو الآخر.. واستطاع عبر تمثيله المتقن للرياء والنفاق أن يفوز برضا رؤسائه، وتشاء الأقدار أن أكون رفيقه ومدرّبه العملي..
وتشاء الأقدار أيضاً أن يكون ذلك في أدق وأخطر مراحل مجريات الأحداث العسكرية . وفي أول مرافقة له معنا تلقينا الأوامر بالخروج لاستطلاع ورصد تحركات العدو المؤللة..
خرجنا أنا وبرهان وكريم وهذه أسماؤنا الحقيقية، إلى منطقة قدّرنا أنها مناسبة، دخلنا إحدى الحفر وبدأنا عملية الانتظار .
أنت تعلم في مثل هذه الحالات فإننا نخرج بملابس مدنية ولا نحمل أية وثيقة تعرّف عنا، ولا نحمل إلا القليل من السلاح الفردي، مسدس وقنبلة ليس أكثر فمهمتنا استطلاع ورصد فقط .
مساء ذلك اليوم كان تقدم العدو على أشدّه مرفقاً بقصف مدفعي كثيف ولسبب ما أطل "كريم" رأسه من المكان الذي نقبع فيه، وفي اللحظة نفسها انفجرت قذيفة على مقربة منا أصابته في رأسه إصابة قاتلة وقبل أن يلفظ أنفاسه نزع السلسلة التي تحمل صليباً فضّياً من رقبته وطلب مني أن أعيدها إلى أمه.. ما أن وضعتها في جيب قميصي حتى فارق الحياة .
وفي اللحظة نفسها انتابت برهان الخائف المرتجف رعباً نوبة هستيرية أفقدته صوابه . عملت المستحيل على تهدئته دون جدوى حتى حسبته كاد يجّن . دفعني بقوة وانطلق يعدو باتجاه خطوط الأمان، ركضت وراءه لحمايته في محاولة للإمساك به، لكن شيئاً نارياً اخترق ساقي وأحسست أنني أحترق .
قاطعته بهدوء :
- أعتقد أن الأمر عادي في مثل هذه المواقف.. كل إنسان معرّض..
تابع بحماس :
- نعم..نعم وأنا أعرف ذلك عن يقين، لكن المهم والذي لا يصدّق هو التالي، فقد صحوت بعد أيام لأجد نفسي في مستشفى نظيف، مربوطاً إلى سرير وثير، حولي ممرّضات راهبات، تنقصني ساق قطعت من أعلى الفخذ..
عرفت فيما بعد أن مجموعة من أفراد تنظيم آخر عثروا علي في المكان الذي كنت فيه، وعلى قيد الحياة، وبعد محاولتهم البحث عن هويتي عثروا على الصليب الفضي في جيبي، نقلوني إلى أحد مشافيهم، واعتنوا بي..
اضطررت بعد ذلك وحتى تمكّني من العودة إلى قطاعي أن أكون "كريم" الصديق الذي وهبني الحياة وهو ميت . وقد استغرق الأمر أكثر من سنة عدت بعدها أقفز على العكاز لأجد أمامي قراراً بفصلي من التنظيم "لأنني تخاذلت وهربت إلى صفوف العدو" . وجاء هذا القرار اعتماداً على تقرير خطي مقدم من "برهان السايب" أضاف إليه مجموعة من الأكاذيب، تبرزه كبطل وتكبلني أنا والمسكين "كريم" بالخزي والعار..

ومما أعطى القوة والمصداقية إلى تقريره، الفترة الزمنية الطويلة التي ابتعدت بها مرغماً.. وقد اكتفوا بطردي من التنظيم، ولم يحلوني إلى محكمة ميدانية رفقاً بحالي، ولعدم كفاية الأدلّة..
سألته بغضب واستغراب :
- أبله إذا كنت تتصور أن أصدق هذه الرواية.؟ إنها على أحسن تقدير قصة تصلح لفيلم سينمائي ولو تصورنا على سبيل الفرض بعض الصدق في روايتك، وكنت في مكانك فلن يكفني أقل من قتل "برهان" هذا..
فرد يديه وابتسم، ثم تابع يقول بهدوء أكثر :
- ألف مرة فكرت أن أقتله.. وكنت أستطيع ذلك بسهولة فائقة لكنني لم أفعل لأمرين..
الأول أنه دليل براءتي الوحيد . والثاني أنه إن لم يقر بما فعل فسوف يأتي اليوم الذي يخطئ فيه خطأ قاتلاً يكشفه . وفي الحالين إما أن ينتهي وحده بالسقوط أو بالقتل..
سكّت ساعتها لا أملك جواباً، تشابكت الصور الغريبة في رأسي المتعب.. تركته ومضيت أركّب الصور فوق بعضها عسى أن أخرج منها بقناعة ما ترضيني على الأقل .
هل كان الأعرج يكذب أم كان صادقاً ؟ وهل يعقل أن تصل الأنانية بإنسان إلى حدود تدمير الآخر عن سابق إصرار في سبيل تحقيق كسب آنّي.؟
شغلتني قصة الأعرج أياماً كثيرة، لم أتحدث معه خلالها كلمة واحدة، بل كنت أنظر إلية خلسة وألحظه ينظر إلي هو الآخر يرجوني دون تصريح، أن أصدقه..
ظهيرة يوم ماطر، المكان مغلق على آخره بالناس ودخان السجائر والنراجيل والأحاديث الصاخبة وأصوات حجارة الطاولات وصفعات أوراق اللعب .
رأيت من خلال الواجهة الزجاجية الممتلئة بسحب من الضباب والعرق الساخن طيفاً لرجل أعرج يقفز فوق عكازه كدجاجة مجنونة يلوّح بيده في الهواء بفرح مجنون .
ودون أن أفكر خرجت إليه.. استقبلني بوجهه المغطى بفوضى شعره الكثيف، ولأول مرة شممت رائحة الخمر تفوح من كل جزء فيه.. صرخ بفرح :
- ألم أقل لك.؟
انحنى قليلاً يلتقط العكاز الخشبي الغليظ الذي سقط من يده، اقترب مني أكثر أيقنت أنه سكران حتى الثمالة، امسكني من قميصي، وكأنه ينزع مسمار الأمان من قنبلة قال :
- هرب "برهان السايب" عن طريق الأردن إلى غزّة .!
ركع على ركبته الوحيدة فوق الأرض المبتلة بماء المطر الكثيف..
وراح يبكي بنشيج حزين..

مبـروك الحمّــار

يحكى أنه في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، قبل أن يكتشف الإنسان قوانين الحساب للسنين والأيام . أتت على البادية الواسعة الشاسعة سنوات متوالية من القحط والجفاف، انحبست خلالها الأمطار التي تشكل في كل العصور مصدر الحياة للإنسان والحيوان على السواء.. وكادت الأرض ومن عليها أن تحترق..
تهاوت أعمدة الخيام، وما عادت تضرم نار ولا ينفخ تحت الدلال . جفّت ضروع الأغنام، وفقد الغذاء والكساء، وصارت الأطفال والمواشي تموت بالعشرات من الجوع والعطش، وباتت جميع القبائل عرضة للهلاك..
وكان يعيش في إحدى القبائل ولد لم يتجاوز العاشرة من عمره اسمه "مبروك" . قرر دون أن يوجّهه أحد أن يضرب في الأرض، علّه ينجو مع بعض أغنام ساقها أمامه من موسم الهلاك الرهيب، وراح يسير على غير هدى عبر الأراضي القاحلة الجرداء الموحشة، تأكل الرمال الحارّة قدميه، وتكاد أشعة الشمس اللاهبة أن تقتل ما تبّقى من أمل عنده في النجاة..
لكّنه صمّم بإرادة حديدية على مواصلة السير، مستعيناً بالأشواك وعقد الشيح المتطايرة طعاماً له ولأغنامه القليلة وحتى يتّم الله أمره..
ما يكاد ينتهي من صعود مرتفع حتى يقابله آخر، إلى أن أطّل أخيراً على سهل واسع، تتلاطم الرمال الصفراء في أرجائه كأمواج بحر عظيم، وقد شاهد على البعد، في آخر الفراغ المفتوح عن آخره، شجرة عملاقة تحتل قمّة مرتفع، تنتصب خضراء، تلون الأفق الأصفر بلون حميم..
شدّ الخطى إليها والأمل يحدوه، وما أن وصل حتى راح يخصف بعصاه من ورق الشجرة العملاقة ويأكل منها بنهم هو وأغنامه، ثم يرتمي تحت ظلالها الوارفة..
كانت من الضخامة بحيث تعجز أذرع أربعة من الرجال الأشداء الإحاطة بجذعها.. وبعد حين راح يغط في نوم عميق..
وربما رأى في منامه ما رأى، فقد هّب واقفاً وهو ينتفض لمجرد خاطر ورد إلى رأسه الصغير..!
دار حول الشجرة، ينظر بإعجاب ويتساءل كيف تقوم بهذا العنفوان دون ماء يمدّها بأسباب الحياة..؟
وفي اللحظة نفسها التي خطرت على باله هذه الخاطرة، أخذ يحفر بيديه وعصاه حول جذعها بنشاط يحدوه الأمل وحلم مدهش جميل يداعب خياله..
بعد ساعات مضنية من العمل المرهق أحّس "مبروك" أن الرمل يزداد رطوبة بين يديه شيئاً فشيئاً، ولم يلبث بعد حين أن شعر بشيء مبتلٍّ ينساب من بين أصابعه ببطء..
ثم فجأة اندفع الماء قوياً عارماً كأنه نافورة عظيمة.. تدفق في كل اتجاه منحدراً إلى السهل الشاسع ليستقر في أخفض مستوىً فيه ويرتفع منسوبه قليلاً قليلاً ليشكّل بعد وقت قصير بحيرة عظيمة واسعة تطفح بماء عذب زلال..
وبسرعة مذهلة تناهت أخبار ولادة البحيرة الجديدة من العدم إلى أسماع القبائل المنتشرة في أرجاء البادية، فتقاطرت إليها، وأقامت حولها ببشرها ودوابها لتصبح وطنهم الجديد..

وما هي إلا فترة قصيرة من عمر الزمن حتى غدت المنطقة ما حول البحيرة أشبه بحاضرة عظيمة.. أقيمت فيها البيوت، ومهّدت الطرقات، وافتتحت الدكاكين والخانات والمحلاّت الملوّنة، وعمرت الأسواق واكتظّت بالناس من كل حدب وصوب، ولم تلبث أن أصبحت مدينة عظيمة ليس كمثلها في ذلك الزمان..

اتفق الناس على رجل نصبّوه ملكاً..

كان جليلاً عادلاً مهيباً حكيماً ذو رأي سديد، أميناً صادقاً نظيف اليد والنفس والطوية، أقام الحكم بالعدل بين الناس، واهتمّ بشؤون المدينة وتحسين صورتها ومرافقها..

راقب الموازين والأسواق ونظافة الخانات وحسن استقبال الوافدين، حتى لقّب بالملك العادل..

ومع مرور الأيام صارت "الواحة.. وهو الاسم الذي أطلق عليها" محط القوافل في حلّها وترحالها . وأكثر العلامات وضوحاً لساكني البادية . ومركز الاتجاهات ومحورها..

وقد وفد إلى المدينة مع من وفد من الصنّاع والتجار، رجل من أمهر المتخصصّين في رعاية الدواب "التي كانت الوسيلة الوحيدة في ذلك الزمان للنقل والترحال ونقل الأحمال، والكرّ والفرّ في أوان القتال والنزال"..

افتتح هذا الرجل في الواحة إسطبلاً كبيراً وباشر فيه عمله . واستخدم "مبروك" للعمل معه في هذا المجال . وقد عشق الفتى مهنته الجديدة وأتقنها في وقت قصير بمختلف فنونها على يد معلّمه القدير .

ثم استأذنه وافتتح لحسابه خاناً خصّصه لمعالجة أمور "الحمير" دون سواها.. ومع مرور الأيام حقق لنفسه سمعة طيبة، واستحق عن جدارة أن يطلق على خانه "ملك المراكيب"..

كان مبروك يختار الحمار المنهك والحرون والكسول والهزيل، يشتريه بثمن بخس، يحمله إلى إسطبله يسقيه الماء البارد الزلال فتشتّد لثتّه . يطعمه القليل من الحبوب والخضار فتستقيم بطنه، وينتصب ظهره . يحدوه حدوات رقيقة فتقوى قوائمه وتحلو مشيته . يقّص الزائد من شعر حول عينيه وفمه ويصلح من انسياب ذيله وقد يصقّقه مضفوراً أو سائباً بما يتناسب مع الشكل العام للحمار ثم يمسّد أذنيه فتستقيم . ويحّك أسنانه بتركيبة طيبة من الأعشاب الخاصّة فتحلو وتلتمع . ويلبسه بردعة مزركشة بألوان خلاّبة، وقد يضيف إليها بعض الأجراس الرقيقة . ويعلّمه إطاعة الأوامر وتنفيذ ما يطلب منه فيغدو بعد حين من خيرة الحمير شكلاً وحركةً وتأدية خدمات..

فإذا ما قال له.. كذا مضى الحمار بخطى رشيقة بلا حرن ولا جدال، ومتى قال.. كذا توقف بالحال ولو ضرب تحت قوائمه زلزال وكل ذلك بغنج ودلال..

ولحظة تقع عليه عين الزبون، يشتريه في الحال دون كلمة فصال . ليتشدق بخيلاء بين الناس بأنه اشترى حماره من إسطبل "مبروك الحمّار.. ملك المراكيب"..

وهكذا توالت الأيام على هذه الحال من الاستقرار والازدهار، وسكّان "الواحة" جميعاً يعيشون في سعادة وبركة وهناء..

وفي هذه الزحمة لم يعد من أحد حتى ولا "مبروك" نفسه يذكر أو يتذكّر متى كانت البداية وكيف.. وكان من المتوّقع "رغم أن ذلك لم يخطر على بال الناس ولا على بال الملك العادل" أن يطمع الطامعون في المدينة العظيمة، فملئوها بالعيون والجواسيس يتسقطون

أخبارها ويختبرون مواطن الضعف فيها، ولم يكن صعباً أن يكتشفوا أن المدينة رغم عظمها ليس فيها جيشاً يحميها..
في ليلة حزينة وعلى حين غرّة هاجمت جحافل الغزاة "الواحة" الوادعة..
عاثوا فيها نهباً وتقتيلاً، وسرعان ما سقطت بين أيديهم.. لكن الملك العادل استطاع مع بعض أتباعه الهرب واللجوء من جديد إلى البادية الواسعة الشاسعة المترامية الأطراف..
توّج قائد الغزاة ملكاً على عرش الواحة، وكان همّه الأول ترسيخ سلطانه . فأقام الأسوار المنيعة والحدود المحروسة على مدار اليوم، وجعل للمدينة أبواباً تغلق عند المساء، كما عمل على تنظيم الجيش وتقويته، ومراقبة الناس وتسجيل حركاتهم وسكناتهم ومعاقبة كل من يشكّ في أمره بأقسى العقوبات وأشدّها حتى يكون عبرة لسواه، وفرض الضرائب الظالمة .
وحين استقر به المقام اختار لنفسه مكاناً إلى جانب الشجرة القديمة العملاقة، بنى فيه قصره العظيم.. ولم يترك في المدينة من أحد يجرؤ على الاعتراض أو المقاومة..
ولمّا كانت خيول الغزاة ودوابهم بحاجة للرعاية والعناية، فقد أرسل الملك الجديد منادياً في المدينة يجمع بين يديه ذوي الاختصاص ليختار من بينهم أفضلهم يحمّله هذه المسؤولية العظيمة..
وكان "مبروك" يمثل بلا منازع الشخص الأنسب لهذه المهمّة، كيف لا وهو "ملك المراكيب"..
قرّر الملك استخدامه في الحال، وأشار إلى وزيره ليقوم بتسليمه الإسطبلات الملكية في التو واللحظة ليجد "مبروك" نفسه أمام عمل جديد لم يخطر له على بال كمسؤول أول ووحيد عن الإسطبلات بكل ما فيها من دواب للجند والعسكر..
فانخرط في عمله الجديد بإخلاص وتفان، وراح يتعامل مع الخيول كما كان يتعامل مع الحمير غائباً عنه أنها وإن كانت تتشابه بالذيل والأذن والحافر، فهي لا تلتقي معها في أمور كثيرة أخرى..
صار إذا شدّب ذيل الحصان نفر واغتاظ، وإذا ألبسه ما يحلو للحمير نفضه بخيلاء، وإذا حداه كما تحدى الحمير ثقلت حوافره وصار يسير وكأن به عرج، وإذا هدّب ذؤابته أصابه حول وإذا حكّ أسنانه انفتح فمه وأعياه أقل مسير . إذا ألبسه المشدّات ترهلت فخذاه، وإذا أطعمه الحبوب أو الخضار أصابه تلبّك شديد، وإذا سقاه الماء الزلال اصطكّت أسنانه واهترأت لثته..
وعلى الرغم من كل ذلك فهي تبدو نظيفة جميلة، أنيقة مطهّمة.. لكنّها في الحقيقة فاقدة القدرة والجاهزية . وما من أحد يدرك ذلك حتى ولا "مبروك" نفسه..
انغمس ملك الغزاة بعد أن اطمأن إلى حالة الأمن في الواحة في اللهو والمجون، واثقاً أن مملكته العظيمة المنيعة أقوى من الثوّار الذين اجتمعوا حول الملك العادل في أقاصي البادية وقويت شوكتهم . ولم يخطر على باله أن حفنة قليلة من الرجال تجرؤ في يوم من الاقتراب من أسوار المدينة المحصّنة .
لكّن الثوار بقيادة الملك العادل استطاعوا الوصول بالعزم والإصرار إلى مشارف الواحة..
وكان من بعض عادات أهل الحروب في ذلك الزمان أن تبدأ الحرب بمبارزة بين أعتى الفرسان من الجانبين وغالباً ما تتقرر نتيجة المعركة قبل تلاحم الجيشين.. وهكذا كان..

اجتمعت الفرسان، وحان موعد النزال.. فأرسل قائد الغزاة ثلاثة من خيرة فرسانه تقدّموا إلى الساحة على خيولهم الخليعة، بخطوات كأنها الرقص . قابلهم ثلاثة من فرسان الملك العادل فوق خيول قويّة تعرف ما عليها أن تفعل في مثل هذه الحال .
دارت دورات عديدة حول الخيول المدللة قبل أن تبدأ معركة قصيرة وحاسمة جندلت فرسان الغزاة الثلاثة في طرفة عين وجعلت قائد الغزاة المشرف على المعركة من فوق الأسوار يقف واجماً مذهولاً مما يرى بعينيه..
تتابعت معارك ذلك اليوم المشهود . وقبل أن ينتصف النهار قتل من فرسان الغزاة أكثر من مائة تحت سيوف الثوّار.. وأدرك قائدهم أن الدوائر تدور عليه، وأن الهزيمة الماحقة تحققت لا محالة، ولم يبق أمامه أي فرصة للاختيار..
وفي اللحظة نفسها أتاه صوت الملك العادل هادراً كشلال، يدعوه على عجل إلى النزال . وقبل أن يجيب النداء استدعى "مبروك" الذي وقف بين يديه بانكسار..
نظر قائد الغزاة طويلاً في وجهه ثم قال بصوت ملؤه الأسى والحسرة :
- فعلتها يا حمّار وخذلتنا، ولم نحسب لك أدنى حساب، جعلت من فرساننا الأبطال دمىً تتحرك على خيول لا أعرف كيف استطعت أن تتلفها على هذا الشكل المهين، ثم ضربتنا الضربة القاصمة..!
لم يفهم "مبروك" كلمة مما قيل، وراح ينقل ناظريه ببلاهة وحيرة بين القائد الغاضب وجنده . وقبل أن ينطق بحرف واحد، عاجله قائد الغزاة بضربة من سيفه الصارم فصلت رأسه عن جسده، وألقى بالرأس المقطوع من فوق الأسوار . ثم خرج للنزال وهو يعرف المصير الذي ينتظره . وقد خذله الحصان أيضاً فتلقاه الملك العادل بضربة نجلاء قتلته في الحال ...
عادت "الواحة" إلى سابق عهدها بحماية جيش قوي هذه المرة، وعاد لها تألقها وازدهارها..
وبعد أن استفاق الناس من فرحة الانتصار العظيم والتحرر من الكابوس اللعين، تذكّروا وذكروا "مبروك" بكثير من الإعجاب، وكيف ضحى بنفسه في سبيل حرية المدينة وسكّانها..
أمر الملك العادل إقامة ضريح جليل وسط حديقة القصر، تخليداً لذكرى بطل ضحى بالغالي والعزيز في سبيل حرية وطنه..
ولم ينتبه أحد "إلى نظرة ذات مغزى تبادلها الملك العادل مع وزيره الحكيم" وهما يضعان إكليل الغار فوق شاهدة القبر الكبير الذي صار مع مرور الأيام مزاراً لكل القبائل، وارتبط اسمه وذكره بحكايات وقصص ما تزال تروى حتى اليوم تقليداً وتخليداً لرمز عظيم ...
ما زال الضريح قائماً على قمّة المرتفع، مشرفاً وحده على بقايا البيوت التي هجرت بعد أن جفّت مياه النبع العظيم، مؤشّراً لذكرى مدينة "الواحة" التي كانت عامرة ذات يوم بعيد، ولم يخطر على بال أحد في ذلك الوقت أن تصير إلى زوال وفناء..
أمّا الشجرة العملاقة، فلم يذكرها أحد، ولم يفطن إلى وجودها أحد.. رغم أنها ما زالت تقف بشموخ وعناد وإصرار..
خضراء الأوراق، رطبة الأغصان، وارفة الظلال..
لا يحيط جذعها الضخم أذرع أربعة من الرجال الأشداء..!

فارس يرفض الإعدام

أطل رأسه من فوق السور الترابي ليشاهد في زاوية المكان خافتة الضوء ذلك الحيوان الذي لم يجده رائعاً كما كان طيلة الوقت الذي عاشا فيه سوية.. مكبّلة قوائمه الأربعة بقيد حديدي عجيب لم ير أو يسمع بمثله في حياته..
نظر خلسة إلى شرطي البلدية السمين الحارس أمام باب الزريبة، بادله نظرة شرهة، وراح يمسح على بطنه الكبيرة براحتيه..
- سيذبحونه إذن..؟
مضى بخطوات متثاقلة، ينظر في وجوه الناس القلائل الذين يستعملون الطريق الترابي الضيّق الذي يخدّم مجموعة من المزارع والبساتين، المنتهي إلى تلك الزريبة الحقيرة الممتلئة برائحة الرطوبة والروث والعفونة..
لم يتّصور "سرحان" أن الخمس سنوات الأخيرة من عمره بأحداثها المتراّصة، انقضت هكذا بسرعة كأنها طرفة عين..
منذ اليوم الذي التقطه فيه من الشارع "كما يحلو لقريبه الثري تصوير الأمر" ليستخدمه كناطور لمزرعته البعيدة عن عمران المدينة، ويصبح بعد ذلك بقدرة قادر مزارعاً وسقاءً ومربيّاً للدواجن وراعياً للمواشي، وخادماً لتلبية طلبات الشاي والقهوة، وغسل سيارات ضيوف "قريبه" الثري الكثيرين..
وكل هذه الخدمات لقاء إقامته وطعامه، وليرات قليلة يستلمها آخر الشهر تكاد تكفي مصروفه الشخصي البسيط، وثمن "البطاريات" الكثيرة التي يستهلكها راديو "الترانزيستور" الذي يحمله دائماً ولا يفارقه..
مع كل هؤلاء مضى "سرحان" يطوي الأيام.. أمامه بصيص أمل واحد يكاد هو الآخر يتلاشى بعد أن مات المستقبل في عقله وصدره حين وضعته مجموعة من المصائب والنوائب على طريق يأس مطلق مباشرة أمام انتظار حدث من قدر لم يرحمه فيما مضى، علّه يرحمه في لحظة غيبية وينهي حياته..
لكنّه حين حضر لحظة الخلق المقدّسة، ودخول "هذا الحيوان الرائع" بوّابة الحياة، أحّس بدفق جديد يوقظ نبل إنسانيته الفطري، ويغلق في الوقت نفسه أية ثغرة ولو صغيرة في مناقشة عقيمة بين الماضي والحاضر وما فيهما وبينهما من ألم . يقوده حنانه القديم إلى اختيار لم يكن صعباً أمام أم تموت في ألم المخاض، وصغير يلج الحياة..
حمله برفق، وأخذ يمسح عن جلده شحم الولادة، ويراقب معجزة الخلق مع رجفات الحياة الأولى تسري في أوصاله الطريّة..
ولد رائعاً ذلك العجل الصغير، جلده الأسود اللامع يشرق كأمواج البحر، والبقعة البيضاء الناصعة التي تتوسط جبهته العريضة، تبدو ثغرة ضوء مبهر في نهاية نفق حالك..
وكان لا بد أن تنشأ بينهما علاقة حميمة ووثيقة لا يمكن إدراجها تحت أي عنوان، أعطاه بلا حدود كل ما اختزن في صدره وقلبه من ذكريات أحزان وآلام، تبدّلت في طرفة عين أمام هذا الحيوان الرائع إلى شحنات هائلة من حب وعطف، أعطاها "سرحان" بحب أيضاً وبإيثار نادر..

يوماً بعد يوم والعجل الصغير "فارس" يكبر وينمو وسط مناخ مشبع بالحرّية، زرع في صدره عشق انتماء وامتلاك للمكان . ينطلق فيه بلا قيود، يؤكد وجوده فوق كل أثر وحجر وذرة تراب وجذع، ثم يسترخي تحت شجرة الكرز الصغيرة، رغم ظلالها القليلة..
في يوم حزين، اقتحمت المزرعة جرارات ومحاريث قلبت الأرض واقتلعت الشجيرات الصغيرة ليقوم مكانها بيتاً من "البلاستيك" قالوا أنه مصمّم للزراعات المغطّاة التي تطرح كل الفصول، وتدّر أرباحاً مادّيةً أكثر..
"سرحان" يقف بعيداً بانكسار يراقب بحزن صورة جديدة للأرض والمكان..
فجأة ضرب "فارس" قائمتيه على الأرض بعنف، وانطلق يدمّر بقرنيه الحادّين القويين أعمدة البيت الجديد فتتهاوى واحداً بعد الآخر، ويعمل تمزيقاً بـ "البلاستيك" الأبيض.. ثم يسترخي في المكان ذاته الذي اقتلعت منه شجرة الكرز..
جن جنون "القريب" الثري وهو يراقب ما يجري، ولم يلبث أن انقض بعصاه الغليظة يهوي بها على ظهر فارس ورأسه بعنف وغضب واستدار يرفع العصا في وجه "سرحان" يكاد يهوي بها عليه..
فجأة أيضاً.. ارتّد فارس خطوات إلى الوراء ثم قفز قفزة عريضة..
انقلب الموقف خلال لحظة لا تزيد، وكأن الجمع القليل يقفون أمام مشهد من مسرحية، يسدد "فارس" بقرنيه ورأسه ضربات سريعة متلاحقة على "رجل" سقط يتخبط على التراب..
تدّخل "سرحان".. شّد رأس "فارس" بقوّة، ووضع حول رقبته الغليظة لجاماً من جلد متين، ليساق مع كثرة من الناس المتطوعين إلى مركز البلدية.. التي قرّرت في محاكمة سريعة "عدوانية الثور وشراسته" وأصدرت حكماً سريعاً أيضاً بإعدامه..
وبسرعة أيضاً بيع "حق الإعدام" وتنفيذه إلى "جزّار" دفع المبلغ الأعلى ثمناً للحمه السمين..
طوى "سرحان" رأسه الصغير بين كتفيه الهزيلين، وراح يقذف بمقدمة حذائه الحصّيات المفروشة على أرض الطريق الترابية، بعد أن ألغى فكرة زيارة قريبه الثري في المستشفى الذي نقل إليه وهو بين الموت والحياة..
وقرّر أن يمضي ليلته ساهراً على الطريق ليكون أول المتفرجّين في الصباح الباكر على مشهد تنفيذ حكم الإعدام..
أحّس رغبة شديدة على البكاء، ورغبة أشّد تمنى فيها لو يعود إلى بيته الذي أغلق بابه منذ خمس سنوات وحمل مفتاحه.. ضمّه إلى مجموعة أخرى من المفاتيح التي ورثها عن والده..
قال له يومها بأنها "تخّص دكاكيناً وبيوتاً وأبواباً وخزانات يملكونها في مكان بعيد.."
ولن يورّثها بدوره إلى أحد.. لم يبق أحد يرثها.. تساقطوا واحداً بعد الآخر في فترة زمن قياسية.. وقع ولده الأكبر "عمر" من فوق السقالة التي كانا يعملان عليها على ارتفاع ثلاثة طوابق أمام واجهة بناء كبير، ومات على الفور.. جاء في حيثيات الضبط المنظم..
"إهمال العامل على اتباع أسباب السلامة والأمن المهني أدى إلى مقتله.."
مساء ثالث أيام العزاء وقفت سيارة فخمة بين الكراسي الكثيرة المتناثرة على عرض الرصيف والشارع.. نزل منها ربّ العمل، المحسن الجليل، ليقدم بالغ أسفه، وشعوره العميق بالحزن.. ومظروفاً فيه ليرات قليلة ... وانتهى الأمر.!

ولم يلبث أن فقد ولده الثاني "فارس" يوم خرج من البيت ولم يعد..
قالوا هرب مع "حبيبة" له إلى أواسط البلاد.. وقالوا سافر على مركب إلى ضفّة العالم الأخرى.. وقالوا أنه انضمّ إلى مجموعة من الرجال، يقاتل معهم في مكان ما.. قالوا أن أخبار انتصاراته ستغطي مساحة العالم قريباً..
أغلق باب بيته على ما فيه، وحمل المفاتيح الكثيرة و "راديو الترانزيستور" وغادر المخيم..
التقطه "من الطريق" قريبه الميسور.. واستخدمه..
مضت الليلة ثقيلة بطيئة بحجم السنوات الكثيرة التي حفرت في وجهه وجسده أخاديد من الحزن والألم وعندما أطلت خيوط الفجر الأولى، وبدأت حبيبات الندى تشق طريقها إلى الشمس، سمع "سرحان" ضوضاء وجلبة لم تلبث أن انكشفت مع هدير جرار زراعي عتيق يسحب وراءه حبلاً ثخيناً مربوطاً آخره حول رقبة "ثور" مات قبل أن يبزغ الفجر..
لم يكن جلده الأسود لامعاً كما كان.. بل كانت البقعة البيضاء ما تزال ناصعة وسط جبهته العريضة ثغرة ضوء مبهر في نهاية نفق حالك..
ابتسم "سرحان" بسعادة غامرة.. تراءت له شجرة كرز صغيرة تنتصب بين قرنيه.. تحسّس "الراديو" المستقر في جيبه..
تمتم وهو يمضي بكلمات كثيرة لم يسمعها ولم يفهمها أحد..!